عمر رشدي

على ضفاف الأنهر

قصص قصيرة

من

الأدب الروماني

تطور القصة في الأدب الروماني

ولكننا لا نستطيع أن نلتزم الحديث عن القصة ليس إلا ، فالقصة أسلوب من أساليب التعبير الفني ، ومن ثم فيجب أن يمتد حديثنا إلى الأدب الروماني بصفة عامة ، وهذا يقتضي منا أن نتعقب التاريخ الروماني بالقدر الذي يتطلبه التنقيب عن معالم القصة الرومانية والأدب الروماني .

والتاريخ في نظرتنا العلمية لا يمكن إلا أن يكون تاريخ الناس والشعوب لا تاريخ ملوك أو أفراد ، وأن الثقافة والأدب والقصة وغيرها من الأفكار والفنون انعكاسات لاتجاهات اقتصادية تتعارض وتتصارع في مرحلة تاريخية معينة متخذة مظاهر سياسية ، وأن التصارع ينتهي في آخر الأمر بانتصار التيار الاقتصادي الصاعد وانعكاساته ، وهزيمة التيار الاقتصادي المنهار وانعكاساته .

في رحاب هذه النظرة العلمية تفرغت بعض التفرغ للأدب الروماني والقصة الرومانيه ، أقرأ وأبحث وأترجم . وهذه النظرة العلمية فنوء بها أحيانا ، على الرغم من نورها الهادي . إنها تبدد الدياجير وتمحقها محقا ، ولكن كثافة الدياجير التي ينفث سمومها الاستعمار والخونة كثيراً ما تخلف حول مصباح الحقيقة الوهاج

مبادئ يختلط فيه عليك الأمر ، ويتحتم عليك أن تبذل جهدا آخر لإزاحته ، وإطلاق الحقيقة من الأسار المؤقت الذي تعشش فيه . إننا معشر الكتاب والقراء صرعى ثقافة مفروضة يروجون لها بمختلف الوسائل من راديو وسينما وكتب وصحافة . ونحن نزهو بحصانة النظرة العلمية التي تحمينا من هذه الأوبئة ، ولكننا في الوقت نفسه ننوء بما تتطلبه من جهد وبحث وتدقيق . مثلنا في ذلك كمثل العالم في معمله يجري أبحاثه وتجاربه ، ويخرج في نهاية الأمر بنظرية أو قانون يستطيع أن يتكئ عليه في مجال البحث العلمي المستمر التطور . وإنه ليتصبب عرقا من فرط الأمانة والدقة والجهد والموضوعية . أما هم في جمعتهم وحناجرهم وأقلامهم زاد لا ينفد من الألفاظ والتعابير ، والأساليب المنغمة المستديرة ، والآهات والتأوهات ، والعظات البيانات ، والأمثال والحكم المأثورة ، والتشبيهات والسجع . ألم ترهم يخطبون فيرتجلون دون حياء كلاما أجوفا رنانا ، ويكتبون فتجري أقلامهم على الورق بإنشاء فارغ فيه مدح سقيم أو قدح أخرق ؟ ويتصبب العرق منهم أيضا في نوبة التهريج والهيستيريا ، ولكنه عرق العافية ، ورضاء البلهاء ، وتقدير الخونة والمستعمرين .

تفرغت إذن للقصة الرومانية والأدب الروماني ، وأنا أنوء وأزهو بالنظرة العلمية . وانكببت لأخرج هذا الكتاب مترجما تسع قصص لثلاثة من القصصيين الرومانيين ، تابعوا

فى التاريخ ، وأعطى إنتاجهم صورة من تطور الأدب الرومانى والقصة الرومانية .

ولكى أزيل لبسا قد يعلق بذهن القارىء أبادر فأقول إن كلمة « رومانى » هنا لا علاقة لها بروما القديمة أو الحديثة ، وإنما هى صفة من رومانيا التى تقع على الشاطىء الغربى للبحر الأسود ، والتى ينساب فيها نهر الدانوب ويبسط دلتاه زاخرة بالخصب والحياة .

وليس فى محاولة إزالة هذا اللبس أى تعريض أو ازدراء أو امتهان لثقافة روما القديمة . فنحن أشد الناس حرصا على تقدير تلك الثقافة ، ووضعها فى مرحلتها التاريخية ، ومحاربة التشويه الذى أراده لها بعض مفكرى وكتاب غرب أوربا الذين يدعون كذبا أنهم وارثو تلك الثقافة وزميلتها الثقافة الإغريقية ، والمدافعون عنهما إزاءنا ، وخير من يرد على هذه الدعوى الكاذبة مكسيم جوركى ، فيقول لهم فى سنة ١٩٣٥ :

« الثقافة تكنولوجيا ، أى نظام للعمل وأساليب يزيد بها الناس معرفتهم بالعالم لكى يصلحوا من شأنه . ونحن نرى أن الاستعمار فى أيامنا هذه جد قانع بما حصل عليه ، وأنه يعترض الآن النمو الطبيعى للثقافة مسببا جيوشا كثيرة من المتعطلين تعد بالملايين ، وهبوطا فى استخدام المهارة الفنية ، واقتضابا فى الأرصدة التى تعتمد للجامعات والمتاحف . والفرع الوحيد فى

الصناعة الذى يعمل دون ازعاج وبنمو مستمر هو الصناعة الحربية التى تهدف إلى إبادة ملايين العمال والفلاحين فى ميادين الحرب القادمة .

المشفقون على الثقافة العريقة التى هى وريثة الثقافة الأغريقية الرومانية ، الخائفون عليها من ثقافة أخرى تنادى بسيطرة الاقتصاد على الروح . . . جهلة وفحاء . إنهم صرعى الوهم الذى يدخل فى روعهم أنهم مستقلون استقلالا فكريا ، بينما هم عبيد للناشرين والمولين ومنتجى الأسلحة . إن قادة الثقافة الاستعمارية المعاصرة هم أمثال هيرست وستافيسكى وكيرنجر . والهدف الذى ترمى إليه الثقافة الحديثة هو تحرير الكدح الإنسانى من أمثال هؤلاء اللصوص . ثم أين نقائس الفكر الاغريقى الرومانى وسط هذه القاذورات وهذا الانحلال ؟ إنها كنقائس مادية مودعة فى المتاحف ومجموعات أصحاب الملايين بعيدة عن متناول الكادحين . وكنقائس أدبية مثل إنتاج سوفوكليس وأيوريبيدس ، فإنها من اختصاص الجامعات لا تمثل أبدا على المسارح الشعبية . أليست هى روما المنحلة المتداعية التى تدعيها أوربا المعاصرة؟ . .

روما القديمة إذن ، وثقافتها وأدبها بخير ما رد عنها كيد مأجورى الاستعمار .

ولنعد إلى الأدب الرومانى والقصة الرومانية . . . رومانيا الدانوب .

* * *

ثلاث ولايات تترامى على ساحل البحر الأسود ، وشاطئ الدانوب ، وسفوح جبال الكربات : مولدافيا وفالاكيا وترانسيلفانيا .

وعاش الرومانيون فى القرن السادس عشر فى هذه الولايات فى وضعهم الاقطاعى منقسمين إلى طبقتين أساسيتين : قلة صغيرة من النبلاء ، وكثرة غالبة من الأقنان .

وفى هذه البقاع كانت عناصر القومية الرومانية تتجمع لتتكون منها ظاهرة جديدة هى نواة الشعب الرومانى بالمعنى الحديث .

والأدب وقتها قد يكتب بالسلافية أو اللاتينية . وفى نطاق النبلاء المحدود ، يتناقل عدد منهم ذلك الأدب البدائى . أما الرومانيون فقد كان الأدب المخطوط والمطبوع حراما عليهم ، لأنه لم يكن قد كتب بعد بلغتهم .

وكانت أولى المحاولات للكتابة باللغة الرومانية مخطوطات دينية ، ويوميات تاريخية ، وأساطير شعبية .

وفى القرن السابع عشر زاد عدد اليوميات التاريخية ، وظهرت إلى جانبها مخطوطات ومطبوعات أخرى وصفت الرحلات التى كان يقوم بها بعض النبلاء الاقطاعيين . كانت هذه الرحلات والأساطير واليوميات هى المحاولات الأولى لتدوين نوع من القصص باللغة الرومانية .

كان الأدب الرومانى فى مرحلته البدائية تلك وقفا على طبقة

النبلاء الاقطاعيين . . . من بينهم الكاتب ، ومن بينهم القارىء . وما أقل ما يكتب ، وما أقل ما يقرأ ، وما أقل الكتاب والقارئين !

حتى إذا جاء القرن الثامن عشر ، وبدت بوادر العناصر الرأسمالية ممثلة فى التجار ، وأقيمت الأسواق ليتلاقى فيها العرض مع الطلب ، وبدأت هذه الأسواق فى الامتداد على شكل المدن الحديثة . . . امتدت الثقافة هى الأخرى . ولكن هذا الامتداد كان محدوداً بمقدار الدور التقدمى القصير الذى لعبته الرأسمالية الرومانية . وما لبثت ، عند ما دان لها السلطان ، أن تحولت إلى قوة رجعية غاشمة تريد أن تعترض سبيل التقدم .

وبعد أن كانت المدارس وقفا على أبناء النبلاء فقط ، فتحت أبوابها لأبناء الطبقة الرأسمالية الناشئة . ولكن الفوارق رغم ذلك ظلت قائمة ، فقد كانت هناك المرحلة التالية من الدراسة حيث لا يستطيع ابن التاجر أن يدخل نفس المدرسة التى يواصل فيها ابن النبيل تعليمه ، أى أن تكافؤ الفرص لابن النبيل وابن التاجر لم يتحقق إلا فى المرحلة الابتدائية للتعليم .

شهد ذلك القرن مولد الشعر الرومانى وتناولت التجارب الأولى للنظم موضوعات تاريخية . كما أن الأدب بصفة عامة قد تخلص إلى حد ما من الطابع الدينى السائد ، وبدأ يتجه اتجاهاً قومياً ضد الغزو العثمانى ، متغنياً بالشعور الوطنى .

ومن أبرز كتاب ذلك القرن ديمترى كانتمير أحد النبلاء الذين حكموا مولدافيا سنة واحدة (١٧١٠ — ١٧١١) . ولقد كان كانتمير عضوا فى أكاديمية برلين ، كما أنه عاش فى قصر بطرس الأكبر قيصر روسيا حيث عكف على وضع مؤلفاته التاريخية التى ترجم معظمها إلى كثير من اللغات الأجنبية . ومن كتبه كتاب عن الامبراطورية العثمانية تنبأ فيه بزوالها . كما أنه ألف كتابا عن الاسلام . والظاهرة الجديدة فى مؤلفات كانتمير أنها اتسمت بجهود لتصوير الأوضاع الاقتصادية ومحاولات لتحليلها . ولقد نادى بالتحالف مع روسيا لإنقاذ رومانيا من النير العثمانى .

وفى مستهل القرن التاسع عشر أخـــذت مبادىء الثورة الفرنسية فى التسلل إلى رومانيا . لقد وجدت طريقها إلى هناك كما وجدته هنا فى مصر بواسطة البعثات التى سافرت إلى فرنسا وعادت منها تتحدث عن الطبقة الرأسمالية الناشئة وكيف ثارت ضد الملك والنبلاء منادية بالحرية والإخاء والمساواة . ووجدت تلك الأفكار الجديدة ترحيباً لدى كثيرين من أبناء التجار وأبناء النبلاء المتوسطين .

وفى نفس الوقت كانت تهب على رومانيا رياح عطرة يطلقها الأدباء الروسيون من أمثال بوشكين وجوجول وتورجنيف ، فتحدث تأثيرها العميق فى نفوس الشعراء

والكتاب والقصصيين الرومانيين . وهكذا زخرت تلك الفترة بأقلام عرفت كيف تهز الإقطاع هزا وتندد بالنير العثماني . وساهمت هذه الأقلام فى تبلور الاتجاهات الفكرية والسياسية للطبقة الرأسمالية الرومانية ، ودفعتها دفعا إلى ثورة سنة ١٨٤٨ .

كان شعر فاسيلى الكسندرى يتغنى بالابطال الرومانيين على مر التاريخ . وكانت له مسرحيات غنائية ووطنية وحماسية .

وتفرغ جريجورى الكسندرسكو لكتابة القصص . ولكنها قصص عن الحيوانات ، ينطق ألسنتها بما يريد أن يتناوله عن الأوضاع القائمة إذ ذاك . . . نفس الاسلوب التقليدى التلميحى الذى يلجأ إليه أصحاب الأقلام عند ما يستشرى الطغيان .

وكذلك كان أسلوب دونيتش فى قصصه . . . حيوانات تنطق ، لان الطغيان أبكم الانسان .

وخطا كوستاكيه نيجروزى بالقصة الرومانية خطوات أخرى من ناحية الصياغة وناحية الحوار .

ونادى ميخائيل كوجالنيتشانو بتوحيد الولايات الرومانية .

وكان نيكولاى بالتشيسكو يربط بين التحرر من الاستبداد الاقطاعى ، والتحرر من الغزو التركى . ولذلك نادى بتوحيد الكفاح ضد هذين العدوين اللذين تألبا على الشعب الرومانى ، وجثما على صدره ، وعرقلا نموه وتقدمه .

كان يهيب بالرومانيين والمجريين أن ينهضوا صفا واحدا للقضاء على أسرة هابسبورج .

كان يقول : « الإقطاعيون ليسوا رومانيين إنهم إقطاعيون ليس إلا » .

كان يحلم بيوم ليس فيه عبد واحد، ولا شعب واحد مستعبد. كان يرنو للعدالة تبسط ظلالها الوارفة على الجميع والإخوة تمحو الاستعباد والشقاق وتقيم المحبة والسلام .

واشتعلت ثورة سنة ١٨٤٨ . وتوهجت آماله مع توهج نيرانها ، ولم تخب تلك الآمال مع فشل الثورة .

كان بالتشيسكو يعرف من هم الخونة الذين عصفوا بالثورة متآمرين مع الإقطاعيين ، لقاء بضعة امتيازات تفضل بها عليهم الإقطاع حتى يبقى على نفوذه الذى يهدده تطور الرأسمالية وتبلور القومية الرومانية .

ومن ثم حمل بالتشيسكو حملة شعواء على البورجوازية الكبيرة التى ساومت الإقطاع لخنق الثورة وعرقلة نموها .

وأرغمته السلطات على الهجرة إلى خارج رومانيا ، فظل صوته يتسرب إلى الشعب الرومانى ناشراً الأمل محفزاً للكفاح .

ولكن الفقر والمرض تعاونا عليه فى منفاه ، فمات فى باليرمو بإيطاليا سنة ١٨٥٢ .

كان عمر ثورة ١٨٤٨ فى رومانيا كعمر الزهور .

ثلاثة شهور . . ثلاثة شهور فقط !

وبعد ذلك توالت النكسات من إغلاق للمدارس ، وخنق

للثقافة والأدب والفن ، وهجرة للشعراء والكتاب والقصصيين .

ومع ذلك ظلت الصيرورة الحتمية تجالد بجميع عوامل الكبت والإرهاب لتأخذ طريقها التاريخى رغم أنف المستبدين والمتآمرين والخونة .

وأخذت البورجوازية الرومانية ، رغم تواطؤ كبرائها مع سادة الإقطاع ، فى النمو . . حقا لم يكن نموا مستقيما سريعا ، ولعله كان نموا متعثرا على الأرجح . ولكنه كان نموا على كل حال .

وإذا بالوحدة بين ولايتى مولدافيا وفالاكيا تصبح حقيقة واقعة فى سنة ١٨٥٦ وتتكون منهما الدولة الرومانية الحديثة .

وإذا بالجيش الرومانى يناصره الجيش الروسى ينجحان فى طرد العثمانيين سنة ١٨٧٧ ، وتصبح رومانيا مملكة . . مستقلة !

وعناصر الإقطاع الذاوية ، والبورجوازية الكبيرة المتواطئة معها تصر فى عناد ويأس على اعتراض طريق الأدب الرومانى .

والأدب الرومانى يشهر أسلحته الرائعة ليكشف مؤامرة الطبقتين الحاكمتين المتآلفتين ، وليمزق الستر الذى تريدان إسداله على الاستعمار الغربى الآنى فى ركابهما ، ومواكب الخراب التى تحف به ممثلة فى رؤوس الأموال الأجنبية .

استمع إلى الشاعر الرومانى الكبير ميخائيل إيمينسكو يقول :

« نحن نعرف الغرب جيداً جداً . فرسالته فى الشرق غزو اقتصادى

وإفقار الشرقيين بواسطة الصناعة الأجنبية ، واستعباد لهم بواسطة رأس المال الأجنبي » .

وكان إمينسكو يشير إلى كارول هوهينزولرن الملك الأجنبي على عرش رومانيا « المستقلة ! » من خلال شعره الرائع في « الرسالة الثالثة » مقارنا بين وطنية الشعب الروماني الصادقة ووطنية الملك الزائفة . . الملك الذي استبدل الحكام العثمانيين بحكام جدد . . الرأسماليين الغربيين !

كانت هناك في رومانيا جماعة أدبية رجعية اسمها « جونيميا » ولقد حاولت تلك الجماعة المغرضة أن تخمد الثورة الجامحة التي تتمثل في نفس الشاعر وإنتاجه ، أو تخفف من حدتها على الأقل ، على أن توجهها بعد ذلك وجهة يائسة . وصورت البؤس الذي يعانيه إمينسكو على اعتبار أنه عدم اكتراث منه بالحياة . وكذبته الجماعة ، فإنتاج إمينسكو - حتى في فترات تردده - كان نابضا بالحياة .

كان يتحدث عن خياطة فقيرة في قصيدته « الحياة » فيقول

إن إبرتها تعمل من أجل قطعة من الخبز
والبرد والأرق والدموع والموت .
كل ما تفهمه من أمر هذا العالم
أن الجوع يبدأ عندما ينتهي كدحها

ولم تكن وطنيته وطنية متعصبة ضيقة الأفق ، وإنما كانت

وطنية زاخرة بالإنسانية ومحبة الشعوب والكفاح من أجل حرياتها جميعا . كان يقول فى قصيدته (الصبقرية المبددة) « . . أحب للإنسانية أن تكون كمنشور بلورى . . منشور واحد وضاء تتخلله الحياة ، ولكنه فى نفس الوقت يتألق بمختلف الألوان . . منشور له ألف لون . . قوس قزح له ألف لون . . ما الشعوب إلا الألوان المنشورية للإنسانية . وعلى كل إنسان أن يعمل على أن تصبح جميع هذه الألوان متساوية فى سنائها وتألقها » .

ويعلو صوت إيمينسكو مشيراً إلى الفنانين الذين ينتجون للسادة لا للشعب ، فيقول فى « الرسالة الثانية » :

يكتبون للنساء والسياسة مدحاً متزلفاً ، وبقيثاراتهم لا يحاولون شيئاً فى هذا العالم إلا تحقيق شهواتهم الدنيئة وفى الصالونات أصبحت اليوم هذه الأصنام رجالنا الأعلام ومهمتهم التى يكافحون من أجلها والتى تحميها النساء هو إهداء الكتب للسيدات ، آملين أن أزواجهن وقد أصبحوا يوما وزراء ، سوف يهيئون لهم الوظائف دائما

وإلى جانب إيمينسكو العظيم عرض كاراجيالى الكاتب المسرحى والقصصى صوراً لاذعة من حياة الإقطاعيين والبورجوازيين . وكان عرضه صادقا رائعا . وهو فى مسرحياته بصفة خاصة مارد لا يجارى .

فى خلال السنين الأليمة التى تبعت ثورة سنة ١٨٤٨ ، كان إيمينسكو وكاراجيالى مثلين من أمثلة الفنانين القادرين الصادقين . لقد كانا فى طليعة الفنانين الذين بعثوا الأمل فى النفوس اليائسة وحفزوها لمواصلة النضال . ولقد تلاهما عدد كبير من الشعراء والكتاب والقصصيين نهج نهجهما وضرب فى ميادين فنية أخرى بنصيب وافر .

ظهرت قصص يون كريانجا تصف حياة الفلاحين الرومانيين وآمالهم ، وتناولت الأوضاع القائمة إذ ذاك فنقدتها نقداً مراً . وتوالت قصص سلافيتش تبرز حياة الفلاحين والحرفيين ، وانطلق شهر جيورجى كوشبوك من ترانسيلفانيا يتغنى بالفلاحين والأرض والحرية ، ودوى صوت الكسندرو فلاهوتسا يشدو بشعر رخيم ويروى قصصاً عذبة .

ولكوشبوك قصيدة رائعة روى فيها قصة عربى كان له جواد عزيز عليه أسماه « الزراب » . وبرح الجوع بأولاد العربى ، ولم يكن هناك مفر من بيع الجواد . فمضى به العربى إلى الأمير كى يبيعه له ويشترى بثمنه طعاماً لأولاده الجائعين . ويبدع كوشبوك فى وصف الانفعالات والنوازع التى يعانيها العربى . إن الرجل لا يريد أن يفارق جواده الحبيب ، ولا يريد فى نفس الوقت أن يموت أطفاله من الجوع . وإذا به - وهو لا يدرى - ينقض على جواده مفضلا أن يقتله أمام الأمير على أن يبيعه له

وكأنه وجد مخرجا لمختلف الأزمات التي تتضارب في نفسه !

واعترض ذلك الفيض العارم من الأدب الثائر تيار أدبي رجعي مزيل يهاجم التصنيع ويطالب بالعودة إلى الماضي وينادي بأن الفن للفن .

وطلع القرن العشرون على التيارين يتصارعان ، وسيل الأدب الثائر الغامر يطوي المحاولات البئيسة الفاشلة التي تعترض سبيله الجارف . وتبدى في شعر فلاهوتسا الأثر الذي خلفه إيمينسكو . وظهر ديوان « نحو شاطىء العدالة » لشاعر من شعراء العمال هو نيكولوتسا ، ولكن ذلك الديوان لم يظهر إلا بعد وفاة الشاعر . وكتب ديلافرانتشا ثلاث مسرحيات عن ثلاث مراحل من تاريخ رومانيا .

كانت الرأسمالية في ذلك الوقت تدخل آخر مراحلها الاستعمار . وكان الشاعر المناضل توما الذي يبلغ من العمر الآن ٧٨ عاما يخط أشعاره الأولى ، والرأسمالية تكشف عن القسام بدورها التقدمي لتصبح قوة رجعية تريد أن توقف عجلة التاريخ .

وأطلق الاستعمار مذاهبه الفنية ، واختفن من التقاليع التي يبتدعها الفيستيريون ما يتفق مع أضاليله ومؤامراته وجرائمه . وشاهد توما ظهور الدادائيزم والسيريالزم ، والترويج للتشاؤم واليأس ، والدعوة لازدراء الحياة والإنسان . ولكن جميع هذه القاذورات لم تستطع أن تنال قلامة ظفر من تماسك الشاعر

وصلابته ، بل دفعته دفعا إلى تكريس كل مواهبه وإنتاجه للنضال .

وكتب قصيدة « الحصاد المقدس » رد بها على المترددين المتشائمين ويقول :

يا أختي ، بثورتهم التي أجـــدبت بجفف دموعك :
تقولها الأصوات من الأعماق ، وفي الربيع يقولها الأريج العطر
وعما قريب . . عما قريب يا أختي ، سوف نكون الحاصدين
وعندها سوف يوقظنا من ليلنا البهيم طائر من طيور السماء
وفي اتحـــاد سعيد ، سوف نسمع مع بزوغ الفجر :
أنتم يا باذري الأحلام الذهبيـــة ، لقد نضج جميع الحصول

وبدت في نفس الوقت المواهب الفذة للكاتب الروماني ميخائيل سادوفيانو الذي جاوز اليوم الثانية والسبعين من عمره . ومنذ سنة ١٩٠٤ التي طبعت فيها أولى رواياته « حكايات » حتى سنة ١٩٥١ التي طبعت فيها قصة « متريا كوكور » ، والكاتب الكبير يشرع قلمه القادر ليصور تصويرا واقعيا حياة المغاوبين على أمرهم وآمالهم وكفاحهم .

بين « خطيئة النبيل الإقطاعي » إحدى روائع سادوفيانو و « متريا كوكور » التي نالت ميدالية السلام الذهبية حقبة تاريخية تربو على أربعين عاما ، ولكن النظرة التي عالجت القصة الأولى هي نفس النظرة التي عالجت القصة الثانية ، مع فارق الزمن والتجارب .

وقد كانت نقطة الابتداء فى كثير من روايات وقصص سادوفيانو أسطورة أو حكاية أو واقعة من خلق الفن الشعبى . ثم تضفى عليها مواهبه الفذة من العرض والصياغة ما يرتفع بها إلى مستوى الأعمال الفنية الرائعة .

ويتحدث الكاتب عن أعمال إيمينسكو وكاراجيالى ، وعما يسميه بحق استمرار التقاليد النبيلة للأدب الرومانى الكلاسيكى فيقول « إن كتبهما أوعية مقدسة تهجع فيها أفكارهما وآلامهما وآمالهما . لقد أخطأت ، فهى لا تهجع وإنما تعمل وتحيا كالحرارة والنور ، وتنفذ باستمرار إلى نفوسنا فتبعث فيها الخصب .. وتدفعها للأمام »

وعندما يصف سادوفيانو الأدب الروسى الكلاسيكى يقول « كأنه أنجب الحياة » . وقد اعتبر هذا الأدب مدرسة كبرى للواقعية . وهو لا يمل من الإشادة بتولوستوى وجوجول وتشيكوف ، كما أنه ترجم جانبا من أعمال تورجنيف . وإعجابه بكبار الكلاسيكيين فى الأدب العالمى معروف عنه ، وخاصة بلزاك وديكنز .

ولقد عرف سادوفيانو كيف يروى حياة الفلاحين فى رومانيا صادقة عميقة . ومن خلال سطور قصصه التى تحدثت عن الريف الرومانى ، ووطأة الإقطاع ، وآلام الفلاحين ، تدرك موقف الكاتب الإنسانى . وفى كتابه « إغراء الزهور » الذى صدر

منذ ثلاثة أعوام روى سادوفيانو قصة حياته وكيف تفتحت عيناه على مأساة الفلاحين .

ولم ينس أن يتحدث عن العمال فى كتابه « أعوام الخبرة » الذى كتبه فى سنوات ١٩٤٢-١٩٤٤ ، بينما كان الشعب الرومانى يئن تحت عبء حكم فاشى غاشم .

ولم ترحم عيناه النفاذتان البورجوازية الصغيرة وترددها ورياءها وجبنها ، فنقدها فى رواياته « زهرة ذابلة » (١٩٠٥) و « سراب المياه الميتة » (١٩١١) و « حيث لم يحدث شىء » (١٩٢٣) . ولكنه فى نفس الوقت ترفق بهـــا ، وهو يراها ضريبة المصير الذى يقض به الاستبداد مضجعها كل ليلة .

وإلى جانب هذا يعتبر سادوفيانو خالق القصة التاريخية فى الأدب الرومانى . فلم تكتف مواهبه الضخمة بالحاضر تقتطع منه صوراً فنية خارقه ، وإنما نبشت الماضى لتخرج منه آيات بينات .

وفى فترة ما بين الحربين العالميتين ، وقف الاتجاه الواقعى زعامة الكاتب الجبار سادوفيانو ، والشاعر المناضل توما ، والقصصى المتوقد ساهيا ، ولازاريانو ، وبوجزا ، وكالوجارو وغيرهم يحاربون الفاشية بكتابات قانونية وغير قانونية ويوجهون أقلامهم القادرة لتحطيم الاتجاه الاستعمارى الذى تكفل بالترويج له بعض المأجورين من أمثال أوكتافيان جوجا وكرانيك

وإذا بالاتجاه الواقعي يصرع الاتجاه الاستعماري في نفس الوقت الذي تحرر فيه الشعب الروماني وهزمت فيه الفاشية .

وانفتحت الآفاق فسيحة رحبة للأدب الواقعي والأدباء الواقعيين ، وبرزت أسماء كتاب جدد مثل اسكندر جار وبيترو دوميتريو وماريا بانوش وغيرهم ينصبون مواهبهم للدفاع عن الشعب الروماني ضد المؤامرات التي يدبرها الاستعمار وعملائه له . واستمد الفنانون من أعمال الإنشاء والتعمير والصراع من أجل السلام مادة خصبة جديدة لإنتاج عامر بالحياة .

ولكي يوضع حد نهائي للهم الذي يعانيه الكتاب في نشر إنتاجهم ، وصدا عتماد كبير للكتاب ، وأقيمت لهم دور للاستجمام . وبذلك يستطيع الفنانون أن يتفرغوا للانتاج والإجادة . كما أنهم لم يعودوا مقيدين بقانون العرض والطلب في تحديد كميات المطبوع من أعمالهم ، بل تضاعفت هذه الكميات ووصلت إلى أرقام تتفق مع تحطيم الحواجز التي كانت تمنع الشعب الروماني من القراءة ؟

١٤ ابريل سنة ١٩٥٣

مختار شكري

كوستاكيه نيجروزى

صدق إيفينسكو عندما يتغنى بالقصصى كوستاكيه نيجروزى فيقول :

« إنه يرسم الصور المظلمة مرة ثانية ،
مبرزا الفعال القاسية لحكام ظالمة أشرار ».

وحقا لقد برع نيجروزى فى تصوير هذه الفعال القاسية براعة وخبرته فى مصاف القصصيين القادرين فى عصره . وهو يعتبر خالق القصة القصيرة فى الأدب الرومانى .

ولقد فتح نيجروزى للشعر الحماسى والرسائل الأدبية منافذ جديدة ، وقاد الحركة التى كانت تعمل لإقامة مسرح باللغة الرومانية ، وترجم أعمال بوشكين وغيره من الشعراء والكتاب الروسيين إلى اللغة الرومانية ، كما اقتبس كثيراً من أعمال فيكتور هيجو وتوماس مور وآنيوخ كانتمير .

فى مدينة كيشينيف كان يقيم كوستاكيه نيجروزى شابا مع عائلته ، وفى مدينة كيشينيف كان يقيم الشاعر الروسى الكبير اسكندر بوشكين مبعداً عن وطنه ، وهناك أمكن لنيجروزى أن يتعرف إلى بوشكين ، وكان لهذه المعرفة أثر كبير فى تكوينه وتنمية مواهبه . وما أن حاول الكتابة بعدها حتى وفق فيها توفيقا كبيراً .

ولقد ظل أثر بوشكين ملقيا بظلاله الوارفة على إنتاج نيجروزى حتى أواخر سنى حياته الأدبيـــة ، ولقد كتب نيجروزى فى سنة ١٨٣٩ يزهو فى إحدى رسائله الأدبية بأنه كان تلميذاً لبوشكين .

لم يبخل نيجروزى بمواهبه على الناس ، بل أودعها كلها فى خدمتهم . ومن ثم اتسم إنتاجه بطابع الصدق وهو يصور مظالم ومباذل النبلاء الإقطاعيين ، وحياة الأقنان الراكدة الذليلة وكيف يتخبطون حيارى لا يكادون يعرفون سبيلا .

ومثل هذا الانتاج الصادق يندرج فى موكب الفن الثائر الذى ابتدعته عقول عشرات الفنانين ليزلزل دعائم الاقطاع والنير العثمانى ، ويمهد لثورة ١٨٤٨ .

بدأ نيجروزى حياته الأدبية فى سنة ١٨٢٣ يكتب فى مجلات مولدافيا مثل « النحل » و « التقدم » . ودفعه أفقه الوطنى الواسع إلى موالاة الكتابة فى صحف فالاكيا مثل « الرسالة » ، وصحف ترانسيلفانيا مثل « جريدة العقل والقلب والأدب » . وتعتبر الفترة مابين ١٨٣٦ — ١٨٤٨ أخصب سنوات حياته بالانتاج .

كان نيجروزى يقول « إن سنة ١٨٤٨ عادت بفائدة كبيرة على حريات الناس » . وبعد تلك السنة لم يكتب إلا نادراً وبين فترات طويلة . لقد حطمه المرض ، وشل إنتاجه تقريبا ، حتى أنه لم يستطع أن يحضر اجتماعا واحداً من اجتماعات « الجمعية

الأدبية الرومانية » التى انتخب عضوا فيها ، والتى أصبحت فيما بعد « الأكاديمية الرومانية » .

ورسائل نيجروزى الأدبية اتهام صريح للنبلاء الاقطاعيين وتحميلهم مسئولية الشقاء الذى يعانيه الشعب الرومانى . كان يقول « ... وهذا الذهب القذر ، من أين اعتصروه ؟ من عرق الناس يئنون تحت ثقل الاستبداد والأريستوقراطية . منذ قرن كامل ، والاريستوقراطية تملك زمام السلطة ، بينما يئن الناس من فرط البؤس ومن آلام النزع

كان قلم نيجروزى سلاحا مشهراً فى وجه الاقطاع . وقصته « الكسندرو لابوشنيانو » تحتل مكان الصدارة فى حربه التى أشعلها ضد النبلاء الاقطاعيين .

وفى القصة صراع رئيسى بين لابوشنيانو أمير مولدافيا وبين النبلاء الاقطاعيين . ولقد أخذ نيجروزى جانب لابوشنيانو ضد الاقطاعيين . وفى جميع مراحل الصراع كان نيجروزى يشيد ببطولة لابوشنيانو ، وينعى على الاقطاعيين جرائمهم وخورهم وخستهم .

فى هذه القصة صور نيجروزى حقيقة تاريخية تصويراً فنيا رائعا . وإن إحساسات المؤلف المعادية للإقطاعيين والتى تتخلل القصة فى أكثر من موضع ، ووصفه لثورة الجماهير ومقدرته على التحليل النفسى ، وتحديد الشخصيات تحديدا دقيقا

وتوفيقه فى بعث جو العصر الذى جرت فيه بعثا أمينا زاخرا ، وفض الصراع فضا سيا نابضا ... لتكفل لهذه القصة البقاء .

ولقد بقيت القصة ، ومات الاقطاع فى رومانيا .

بل لقد سبقت القصة حكم التاريخ ، فأعلنت مصيره المحتوم .

ولو أن موت الاقطاع لم يتحقق إلا بعد فترة طويلة من موت نيجروزى فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٦٨ .

الكسندرو لابوشنيانو

١٥٦٤ — ١٥٦٩

« إذا لم تريدوني ، فأنا أريدكم . . . »

١ البلد اليوم تحت حكم اسطفان توميشا الذي قتل بصولجانه يا كوب هيراكليدي المعروف بالطاغية ، بينما الكسندرو لابوشنيانو — الذي هزمه جيش الطاغية مرتين — في طريق عودته من القسطنطينية التي كان قد فر إليها وحصل منها على مساعدة جيش تركي يستعيد به عرشه الذي سلبه توميشا ، والذي لم يفقده إلا لأن النبلاء خانوه . ودخل مولدافيا منتصرا بسبعة آلاف فارس تركي وزهاء ثلاثة آلاف من المشاة المرتزقة . هذا إلى أنه كان يحمل وسام إمبراطوريا يتيح له أن يطلب من أمير التتار الناجيين أية مساعدة حربية يريدها .

ولابوشنيانو يسير راكبا جواده إلى جانب جواد يمتطيه بوجدان كبير الأمناء وقاضي القضاة . كان كل منهما يمتطي جوادا عربيا ومسلحا من قمة الرأس إلى أخمص القدمين .

قال لابوشنيانو بعد فترة صمت قصيرة : « ماذا ترى يا بوجدان ؟ هل سننتصر ؟ » .

أجاب نديم الأمير : « لا شك فى ذلك يا صاحب السمو ، إن البلد بأن تحت حكم الظالم تومشا . وسوف يستسلم الجيش كله لك عندما تعد الجنود برفع أجورهم . أما النبلاء ، فإن العدد القليل الذى تبقى حيا منهم لا يمالئه إلا خشية الموت ، وسوف يسرع إلينا ويتخلى عنه فى اللحظة التى يتبين فيها مدى قوتك يا صاحب السمو » .

ـ فليوفقنى الله كى لا أصنع ماصنعه ميركيا بأهل فالاكيا ولكنى سبق أن قلت لك إنى خبير بنبلائنا ، فقد عشت بينهم

ـ الأمر متروك لسموكم كى تبتوا فيه بحكمتكم .

وأشرفا على تيكوتش ، وهما يتحدثان على هذا المنوال فتوقفا بالقرب من غاية ابتغاء الراحة .

واندفع غلام نحو الأمير قائلا : « مولاى . . لقد وصل عدد من النبلاء توآ ، وهم يسألون إذا كان فى استطاعتهم أن يمثلوا بين يدى سموكم » .

أجاب السكندرو « يستطيعون » .

وفى الحال دخل أربعة من النبلاء الخيمة التى جلس فيها السكندرو محاطا بندمائه وضباطه . كان اثنان من بينهم هرمين بينما كان الآخران شابين : موتسوك كبير الأمناء وقاضى القضاة ، وفيفيرتسا حارس المخدع ، وسبانتشوك وستروبيتش حاملا السيف .

واقتربوا من الأمير الكسندرو ، وانحنوا حتى لامست رؤوسهم الأرض ، ولكنهم لم يقبلوا طرف ردائه كما جرت العادة بذلك .

وقال الأمير محاولا الابتسام « مرحبا أيها النبلاء » .

أجاب النبلاء « نحن نرجو لسموكم طيب الصحة » .

واسترسل الكسندرو قائلا : « لقد أتانى نبأ الويلات التى حلت ببلدنا ، ولقد جئت كى أنقذه . وإننى أعرف أن البلد ستطلع إلى مجيئى » .

قال مونسوك « لا تنخدع يا صاحب السمو . أن البلد هادىء ، وربما نمت إلى مسامع جلالتكم أشياء غير حقيقية . من عادة الناس عندنا أن يبنوا من التلال الصغيرة جبالا شاهقة . ومن أجل هذا فقد أرسلنا كى نخبر سموكم أن الناس لا تريدكم ، بل إنها لا تحبكم ، وأنه من الأفضل لسموكم أن تعودوا من حيث أتيتم . . » .

أجاب لابوشنيانو ، وقد لمعت عيناه كما يلمع البرق : « إذا لم تريدونى فأنا أريدكم ، وإذا لم تحبونى فأنا أحبكم . وسأواصل السير فى طريقى ، شئتم أو لم تشاؤوا . أنتم مشوقون إلى أن أعود من حيث أتيت ، أليس كذلك ؟ ولكنى لن أعود من حيث أتيت حتى لو انحسرت مياه الدانوب . إذن فالبلد لا يريدنى ؟ أنى أقطع بأنكم أنتم الذين لا تريدوننى » .

قال سيانتشولك « الرسل لا يخاصمون أبداً برؤوسهم . وواجبنا هو إعلامك بالحقيقة . لقد قرر النبلاء على أن يثوروا بالجرمانيين والبروتستانتيين والغالاكيين حيث لهم جميعاً روابط قربى أو صداقة . وسوف يموتون بجيوش أجنبية . والويل لبلدنا المسكين عندما يتقاتل الأخوة بعضهم بعضاً . وربما لا يتيسر لسموكم أن تجدوا شخصاً خيراً من الأمير أسطفان توماشا ، وماسوف » .

انتزع الكسندرو الصولجان النحاسي من يد بوجدان ، وقال : « هو إذن توماشا الذي علمكم كيف تتكلمون بهذه الوقاحة ؟ إنني أعجب كيف لا أحطم أسنانكم بهذا الصولجان ! هو توماشا النذل الذي علمكم ... أليس كذلك ؟ » .

قال فيفيرتسا « هذا الذي كان يسمى بحق (من مسحه الرب بالزيت المقدس) لا يمكن أن يكون نذلاً » .

ـ وأنا ؟ ألست من مسحه الرب بالزيت المقدس أيضاً ؟ أو لم تقسموا يمين الولاء لي أيضاً ، عندما كنت بيزو المشرف على الحفلات ليس إلا ؟ ألستم الذين انتخبتموني ؟ وكيف كان حكمي ؟ أي دم سفكته ؟ هل نحيت أحداً عن بابي دون أن آخذ بحقه وأسري عنه؟ ومع ذلك فأنتم اليوم لا تريدونني ولا تحبونني؟ ها . . . ها . . . ها ! »

كان يضحك . . . ويضحك . ولكن عضلات وجهه كانت تتقلص ، بينما كانت عيناه دائبتي الاختلاج .

— إذا سمحتم سموكم ، فنحن نرى أن بلدنا سوف ينتهك من جديد بواسطة القبائل الوثنية . . . عندما تنهب هذه الحشود من الأتراك بلدنا وتخربه ، فماذا يتبقى لسموكم كي تحكموه ؟ .

وأضاف سيانتشوك ، وبماذا سوف تشبع بهم الوثنيين الذين أتيت بهم معك يا مولاي ؟ » .

— بثرواتكم ، وليس بنقود الفلاحين الفقراء الذين تسلخون جلودهم . أنتم تحلبون لأنفسكم لبن البلد ، ولكن حان الوقت الذي أحلب فيه لبنكم أيضا . كفى أيها النبلاء . عودوا وقولوا لمن أرسلكم أن يتنحى عن طريقي ، وإلا فسأصنع من عظامه أبراقا ، ومن جلده أغشية لطبولي » .

وخرج النبلاء مثلومي الخاطر ، وظل موتسوك واقفا . سأله الأمير « لماذا ظللت واقفا ؟ » .

قال موتسوك ، وقد خر ساجدا على ركبتيه « مولاي ، لا تعاقبنا بناء على أفعالنا السيئة . وتذكر أنك تنتمي إلى هذا البلد . . . تذكر ما ورد في الكتاب المقدس ، واعف عن أولئك الذين أخطأوا في حقك . . . ابق على بلدنا المنكوب يا مولاي . . أعد هذه القبائل الوثنية إلى حيث كانت . . وآت فقط بالعدد القليل من المولدافيين الذين معك سموكم ، وسوف نكون مسئولين عن كل شعرة في رأس سموكم . وإذا احتجت إلى جيوش فسوف نستل أسلحتنا نحن وزوجاتنا وأطفالنا . سوف نثير البلد كله . . سوف نثير خدمنا وأقناننا . . صدقنا .

قال الأمير ، وقد خرج عن طوره « أصدقكم ؟ هل تظنون أنى لا أعرف المثل القديم الذى يقول (هل يستطيع الفهد أن يغير جلده الأرقط ؟) . لعلكم تظنون انى لا أعرفكم جميعا ، وأنى أول من عاش بينكم ؟ هل تظنون أنى لا أعرف أنكم تخليتم عنى عندما رأيتم الهزيمة تحل بى ، رغم أنكم كنتم على رأس جيشى ؟ إن فيفيرتسا عدو قديم لى ، ولكنه لم يخف ذلك أبداً . وسيانتشوك لا يزال شابا ، وقلبه مازال ممتلئا بحب بلده ، ويروق لى كبرياؤه الذى لا يحاول هو أن يخفيه . أما ستروبيتش فما زال طفلا لا يعرف الدنيا ، ولا يعرف ما هو الملق أو الكذب . إنه لا يعرف أن كل ماله بريق لا يتحتم أن يكون ذهبا . ولكن أنت يا موتسوك ؟ أنت الذى مررت على مر الأيام اللعينة ، والذى اعتدت أن تكون رهن إشارة الأمراء جميعا ، وأن تنحنى لهم جميعا .. لقد خنت الطاغية ، ولقد خنتنى ، ولسوف تخون توموشا أيضا . خبرنى .. ألا أكون كبير المغفلين إذا صدقتك ؟ إننى أصفح عنك على الرغم من أنك تجاسرت فظننت أنك قد تخدعنى مرة أخرى . إننى أعد بأن لا ألوث سيفى بدمائكم . سأبقى عليكم ، لأننى فى حاجة إليكم سوف تتقاسمون معى لعنات الناس . إن خلية النحل يجب أن تتطهر من عناصر أخرى من المتكاسلين والمتمارضين »

وقبل موتسوك يده ، كما يلعق الكلب اليد التى تضربه بدلا

عن أن يمضيها . لقد سره الوعد الذى حصل عليه . إنه يعلم أن الأمير الكسندرو قد يكون فى حاجة إلى مدبر للمكائد مثله . كان تومشا قد أمر الرسل بأنهم إذا فشلوا فى إقناع لابوشنيانو بالانسحاب ، فعليهم بمواصلة الطريق إلى القسطنطينية حيث يمكنهم بواسطة الالتماسات والرشاوى تدبير أمر خلعه . ولما تبينوا أنه يحظى بتأييد الباب العالى فضلا عن أنهم يخشون مواجهة تومشا دون أن يحققوا شيئا ، فقد استأذنوا فى الانضمام إليه . لقد كانت هذه هى الخطة التى رسمها موتسوك للحصول على رضاء لابوشنيانو ، ولقد سمح لهم بهذا الانضمام .

« سوف تقدمين حسابا عن ذلك أيتها الأميرة . . . »

٢

عندما أخبر توشا بأنه عاجز عن إعداد المقاومة ، فر إلى فالاكيا ، ولم يجد لابوشنيانو شيئا يعترض طريقه . واستقبلته الناس فى كل مكان بابتهاج وثقة ، مستعيدة حكمه الأول الذى لم يطل ليكشف عن طبيعته الشريرة .

ولكن النبلاء كانوا يرتعشون خوفا . كان لديهم سببان كبيران للقلق : كانوا يعلمون أن الناس تكرههم ؛ وأن الأمير لا يحبهم .

وما أن وصل لابوشنيانو حتى أمر بأن تمون جميع حصون مولدافيا بالأخشاب ؛ ماعدا حصن هوتين . ثم أشعل النار فى هذه الحصون حتى يدمر الأمكنة التى يلوذ بها الساخطون والتى يمكنهم فى حمى جدرانها أن يدبروا المكائد ويعدوا الثورات . . ولكى يضع حدا لنفوذ النبلاء ، ولكى يتخلص من جنود الإقطاع ؛ فقد جرد النبلاء من ثرواتهم مستخدما مختلف الدعاوى . وبهذا انتزع منهم الوسيلة الوحيدة التى لديهم لإفساد الناس . ومع ذلك فقد كان يرى أن هذا لا يكفى . ولذلك قام بإعدام بعضهم مرارا . ويترتب على أهون خطأ يرتكبه النبيل فى أداء وظيفته ، أو أقل شكوى ترفع إليه ، أن يعلق رأس النبيل المذنب فوق باب القصر ، وإلى جانبها ما يشير إلى جريمته الحقيقية أو المدعاة . وما أن يتسرب البلى إلى هذا الرأس ، حتى يحل محله رأس آخر .

لم يجسر أحد على أن يتآمر عليه، بل أن ينطق بحرف واحد ضده. واتخذ الكسندرو حرسا ضخما من الجنود المرتزقة الألبانيين والسربيين والمجريين الذين جاءوا من كل مكان هربا من جرائم ارتكبوها ولجأوا إليه، وأخلصوا له بقدر ما أجزل لهم العطاء. أما فرق المولدافيين التي كان يقودها ضباط مخلصون له، فقد احتفظ بها كاحتياطي، ولكنه سرح كثيراً من جنودها؛ ولذلك هبط عددهم إلى حد كبير.

وفي ذات يوم أخذ يتمشى وحده جيئة وذهابا في قاعات القصر. كان قد انتهى من حديث طويل مع موتسوك الذي قربه مرة ثانية، والذي قدم إليه مشروع جباية ضرائب جديدة. كان الاضطراب باديا على الأمير الذي أخذ يتحدث إلى نفسه، وكان واضحا أنه يعد العدة لإعدام جديد أو لأذى جديد، عندما فتح باب سري دخلت منه الأميرة روكساندرا.

عندما مات أبوها الأمير الشفوق بيترو راريش الذي - على حد تعبير الراوي - حزن عليه جميع رجاله، والذي دفن في دير بروبوتا المقدس الذي شيده هو، وضعت روكساندرا التي كانت فتاة يافعة وقتها تحت رعاية أخويها الكبيرين الياس وأسطفان. وخلف إلياس والده على العرش، وحكم فترة قصيرة، انفصل بعدها في حياة داعرة، ثم ذهب إلى القسطنطينية حيث اعتنق الإسلام. وتولى العرش من بعده أسطفان الذي كان أسوأ من أخيه. بدأ بإرغام الأجانب. وجميع الكاثوليكيين

على إنكار عقائدهم ، فغادر عدد كبير من عائلات الأثرياء البلد الذي عاشوا فيه طويلا . ونجمت عن هذه المغادرة خسائر جمة للزراعة والتجارة . وثار النبلاء الذين كانت تربطهم في المناسب روابط زوجية بالبولونيين والمجريين . وبعد أن أقاموا علاقات بأولئك الذين كانوا في المنفى ، قرر قرارهم على قتل الأمير أسطفان . وكان من المحتمل أن يؤخروا تنفيذ ما اعتزموا عليه ، لو أن حياة الأمير الداعرة لم ترغمهم على التنفيذ في الحال . كان الراوي يقول بصراحة « لا تستطيع السيدة الجميلة أن تنجو من براثن فسقه » . وبينما هو في توتورا ذات يوم ، لم ينتظر النبلاء المرافقون له وصول النبلاء المنفيين ، وخافوا أن يفلت الأمر من بين أيديهم ، فقطعوا حبال الخيمة التي كان مقيما فيها وانقضوا عليه وقتلوه .

واليوم لم تبق من أسرة داريش سوى روكساندرا . كان النبلاء الذين قتلوا أخاها في حاجة إليها كي تصبح زوجة لجولد الذي انتخبوه أميرا . ولكن لابوشنيانو الذي انتخبه النبلاء المنفيون ، قاتل جولد وهزمه وأسره ، ثم قطع أنفه وسجنه في دير . ولكي يكسب عطف رجاله الذين مازالت ذكرى الأمير بيترو داريش حية في نفوسهم ، تزوج من ابنة ذلك الأمير . وهكذا أصبحت روكساندرا الرقيقة جزءاً من غنيمة الغازي .

وعندما دخلت القاعة كانت مرتدية أبهى ما يتفق مع زوجة أمير وابنة أمير وشقيقة امير .

كانت تضع فوق ردائها الحريري المذهب عباءة من المخمل الأزرق مبطنة بالفرو القاتم، يتدلى طرفاها الواسعان على كتفيها. وشدت حول خصرها حزاما مذهبا له مشابك كبيرة من العقيق المثبت في أحجار كريمة. وأحاطت بعنقها صفوف كثيرة من اللآلىء. وكانت قبعتها المصنوعة من الفراء الأسود، والتي مالت ميلا خفيفا فوق رأسها مزدانة بريشة بيضاء مثبتة بزهرة كبيرة من الزمرد. وتهدل شعرها المرسل على ظهرها وكتفيها طبقا للنمط الذي اشتهرت به النساء الرومانيات.. ذلك الجمال الذي أصبح نادراً بسبب الاختلاط بالعناصر الأجنبية.

كانت حزينة ذابلة كزهرة تعرضت لحرارة الشمس، ولم تحتم بالظلال. لقد رأت والديها يموتان، ولقد شاهدت ارتداد أحد أخويها عن دينه، ومقتل الآخر. ولقد قضى عليها في أول الأمر أن تتزوج جولد (الذي لم تكن تعرفه) وهاهم النبلاء الذين يتصرفون اليوم في قلبها كما يشاؤون، يرغمونها على أن تصبح زوجة للأمير الكسندرو الذي تحترمه وتطيعه كمولاها وسيدها، والذي ربما راقها أن تحبه لو أنها لمست لديه أقل ذرة من الإحساس.

وتقدمت نحوه وانحنت لتقبل يده. وأحاط لابوشنيانو خصرها بيده، ورفعها كأنها ريشة، ثم أجلسها على ركبتيه وقال مقبلا جبينها «أية أخبار تحملينها يا سيدتي الظريفة؟ ما الذي دفعك لمغادرة منزلك اليوم، اليوم ليس عطلة، أليس كذلك؟ من الذي أيقظك مبكرة هكذا؟»

ـ عويل الأرامل على باب ، ومن يشكين إلى الله والعذراء المباركة الدماء الغزيرة التى أهرقتها .

وأصاب لابوشنيانو غم شديد ، وفك مشبك حزامه .

واستطردت روكساندرا ، وقد سقطت عند قدميه :

ـ يا مولاى الشفوق .. يا زوجى الشجاع .. يجب أن يوضع لهذا حد . لقد أهرقت دماء كافية . وهناك عدد كبير من الأرامل ، وعدد كبير من اليتامى . إن سمعكم فى منتهى القوة ، فكيف يتأتى لعدد قليل من النبلاء المساكين أن يلحقوا بكم أذى ؟ ماذا تريد يا مولاى ؟ أنت لست فى حرب مع أحد ، والبلد هادىء خاضع . وفيما يتعلق بى ، فالله وحده يعرف مقدار حبى لك . وأولادك ياصاحب السمو يتمتعون بالجمال والشباب ... قدر أن بعد الحياة موت ، وأن سموك سوف تموت يوما ما وتقدم حسابا عن أعمالك . لن تفتدى الأديرة الدم الذى أهرقته . وأنت تستفز الرب وتتحداه إذا ظننت أنك تستطيع إقامة كنائس كى تسكن من غضبه ، و ...

وأيتها المرأة الحمقاء ، صاح بها لابوشنيانو ، وقد نهض فجأة على قدميه ، وبغريزته أمسك بالخنجر الذى يحمله فى حزامه ، وبسرعان ما راجع نفسه ، فأمسك زمامها ، ورفع روكساندرا ، وقال لها :

ـ احذرى يا سيدتى أن تفوهى أبدا بمثل هذه الكلمات الحمقاء .. لست أعرف ما قد يحدث . قدمى الشكر للشهيد الكبير القديس دميتر راعى الكنيسة التى أقمناها من أجله فى

جينجراتسى ، لأنه أوقف يدنا ومنعنا من ارتكاب خطيئة . بأن ذكرنا بأنك أم لأطفالنا .

ـــ لن أستطيع أن أمسك لسانى ، حتى لو ترتب على ذلك أن تقتلنى ، أمس ، بينما كنت أدخل ساحة القصر ، ألقت سيدة وأطفالها الخمسة بأنفسهم أمام عربتى كى يوقفوها ، وأرون وأسا دقت بالمسامير على باب القصر ، وقالت السيدة لى وهى تقدمين حسابا عن ذلك أيتها الأميرة ... على تركك زوجك يذبح آبائنا وأزواجنا وإخوتنا .. انظرى أيتها الأميرة ، هذا هو زوجى والد هؤلاء الأطفال الذين أصبحوا اليوم يتامى .. انظرى » ، وأشارت إلى الرأس المخضب بالدم الذى بدا كما لو كان يحملق فى بنظرة شاحبة شحوب الموتى . أوه يا مولاى ، منذ ذلك الوقت ، وأنا أرى هذا الرأس وأرتجف ... لا أستطيع النوم .

سألها لابوشنيانو باسما « ماذا تريدينى أن أفعل ؟ »

ـــ أريد منك أن تكف عن إهراق الدماء .. أن تكف عن القتل . لاأريد أن أرى رؤوسا تقطع بعد اليوم . سوف تتوقف ضربات قلبى من الخوف .

أجاب الأمير الكسندرو « أعدك بأنه لن يمضى يومان حتى لاترين رؤوسا مقطوعة أبداً . سوف أقدم لك غدا شيئا يقضى على فزعك » .

ـــ كيف ؟ ماذا تعنى ؟

ـــ ستّرين غدا . والآن اذهبي يا سيدتي العزيزة واعتني بأطفالك .. اذهبي وقومي بشئون منزلك كربة بيت صالحة . اصدري أوامرك بإعداد وليمة غداً ، فلقد دعوت النبلاء كي يكونوا ضيوفنا .

وغادرت الأميرة روكساندرا القاعة بعد أن قبلت يده مرة ثانية . ورافقها زوجها حتى الباب .

وتقدم الكسندرو بسرعة نحو المحافظ الذي كان قد دخل ، وقال له :

ـــ حسنا ، هل أعد كل شيء ؟

ـــ كل شيء معد .

ـــ هل سيأتون ؟

ـــ سيأتون .

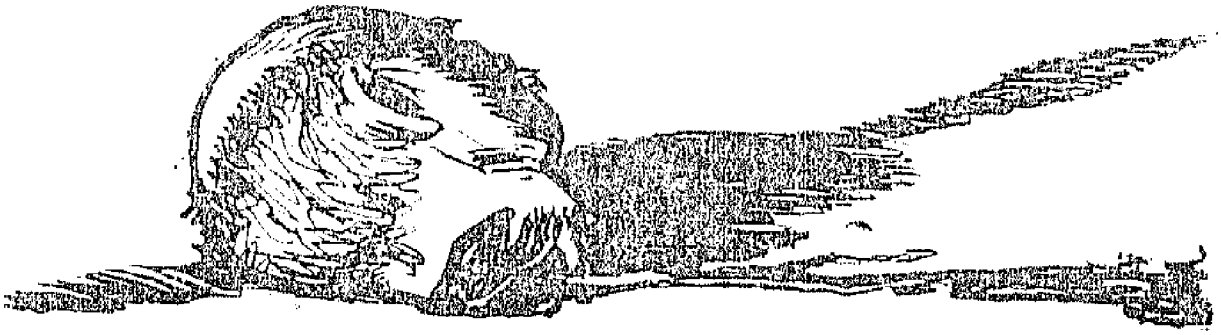

وفى اليوم التالى الذى كان يوم عطلة ، دعى النبلاء للاجتماع فى الكنيسة المطرانية حيث سيحضر الأمير أيضا لسماع القداس ، ثم يمضون لتناول العشاء فى القصر .

وعند وصول الكسندرو ، كان القداس قد بدأ ، وكان النبلاء جميعا قد تجمعوا .

وخروجا على مألوف عادته ، ارتدى لابوشنيانو فى ذلك اليوم أبهى ما يرتديه أمير . لقد وضع فوق رأسه تاج أسرة باليولوج البيزنطية ، وفوق ردائه الرسمى البولونى المصنوع من المخمل القرمزى معطفا تركيا طويلا . أما السلاح الوحيد الذى كان يحمله فهو خنجر صغير له مقبض ذهبى . ومن بين ثنايا ردائه ، كان يمكن مشاهدة درع حول صدره .

وبعد أن استمع للقداس هبط من مقعده ، واتجه نحو الأيقونات ، ووقف أمامها . وعندما اقترب من خزانة القديس يوحنا الصغير ، انحنى بورع ليقبل مخلفات القديس . ويقال إنه كان فى هذه اللحظة شاحبا جدا ، وأن مخلفات القديس جفلت جفولا خفيفا .

وعاد بعد ذلك إلى مقعده ، واستدار فى مواجهة النبلاء ، وقال :

ـــ سادتى النبلاء . . . منذ تبوئى العرش للمرة الثانية

حتى اليوم ، كنت عنيفا جداً مع كثيرين منكم . كنت مجرداً من الرحمة ، وقاسيا . ولقد أهرقت كثيراً من الدماء . الله وحده يعلم أنى كنت حزينا لذلك . واليوم ، إننى نادم على ذلك . ولكنكم تعلمون جميعا أننى أردت أن أضع حداً للممارسات والخيانات التى يقوم بها أولئك الذين كانوا يتآمرون على تدمير البلد وقتلى ، أما اليوم فقد تغيرت الظروف . لقد تاب النبلاء إلى رشدهم ، وتبينوا أنه لا يمكن أن يوجد قطيع دون راع ، لأن المسيح يقول : « اقبض على الراعى ، تتفرق النعاج » . سادتى النبلاء . . فليحب بعضنا بعضا كالأخوة ، لأن هذه هى إحدى الوصايا : « أحبوا جيرانكم كما تحبون أنفسكم » . فليسامح بعضنا بعضا لأننا جميعا غير مخلدين . ونحن نسأل مولانا المسيح (وهنا رسم علامة الصليب) أن يصفح عن خطايانا ، كما نصفح نحن عن أولئك الذين يذنبون فى حقنا .

وعندما أنهى لا بوشنيانو هذه الخطبة التضليلية ، توجه إلى وسط الكنيسة ، ورسم علامة الصليب مرة أخرى ، ثم انحنى للمجتمعين أمامه وعن يمينه وعن يساره ، وقال :

— سامحونى ، أيها القطيع الطيب ، ويا سادتى النبلاء .

« فليسامحك الله يا صاحب السمو » هكذا أجابوا جميعا ، ماعدا نبيلان شابان كان يقفان بمعزل يفكران . كانا متكئين على ضريح بالقرب من باب الكنيسة ، ومع ذلك لم يلاحظهما أحد .

وغادر لا بوشنيانو الكنيسة ، ودعى النبلاء إلى الوليمة التى أقامها لهم ، ثم امتطى جواده ، وعاد إلى القصر ، بينما تفرق الجميع .

سأل أحد النبلاء اللذين لم يصفحا عن الأمير الكسندرو زميله « ما رأيك

أجاب الآخر « أنصحك ألا تذهب » .

واختفيا فى الزحام .. لقد كانا سيفتشوك وستروبيتش .

واتخذت استعدادات ضخمة فى القصر من أجل هذه الوليمة .

وسرت أخبار الصلح بين الأمير والنبلاء مسرى النار فى الهشيم . ورحب النبلاء بهذا التغيير ترحيبا حاراً ، لأنه يفتح أمامهم باب الأمل فى تقلد الوظائف مرة أخرى ، وفى تكديس الثروات من عرق الفلاحين . أما جمهرة الناس فلم يحفلوا به . لم يتوقعوا أن ينجم عن هذا الصلح خير أو شر . لقد تعلم الناس أن يتقبلوا حكم الامير الكسندرو ، ولم يتذمروا إلا ضد وزيره موتسوك الذى استغل ثقة الأمير فيه كى يضطهد الجماهير . وعلى الرغم من أن الناس ظلت ترسل عرائض تشكو فيها السلب والنهب اللذين يواصلهما موتسوك ، فإنها لم تحظ بجواب أو اهتمام من لا بوشنيانو .

وما أن اقتربت الساعة المحددة للوليمة حتى بدأ النبلاء فى الوصول على ظهور جيادهم . كان كل واحد منهم مصحوبا

برجلين أو ثلاثة رجال . ولقد لاحظوا أن القصر كان غاصا بالجنود المرتقة المسلحين ، وأن أربعة مدافع كانت تصوب فوهاتها نحو المدخل . ولكنهم ظنوا أنها وضعت هناك للاحتفال بالوليمة كما جرت العادة . ولعل بعضهم خامره الشك في مكيدة مدبرة ، ولكنه لم يكن في استطاعتهم الخروج بعد إذ دخلوا ، لأن الابواب كانت مراقبة ، ولأن الاوامر كانت قد صدرت إلى الحراس بأن لا يدعو أحداً يخرج .

وعند ما اكتمل شمل النبلاء — كان هناك سبعة وأربعون منهم — جلس لابوشنيانو على مقعده عند رأس المائدة ، وإلى يمينه تروتوشان وزير الحقانية ، وإلى يساره موتسوك كبير الأمناء وقاضي القضاة . وبدأت المزامير عزفها ، وحملت الصحون إلى المائدة .

في ذلك الوقت ، لم يكن الناس في مولدافيا قد تعلموا بعد كيف يأكلون أكلا مطهيا طهيا جيداً . ولم تكن تحوي أكبر مأدبة سوى أصناف قليلة . وتلت الحساء البولوني أطباق يونانية بها أعشاب سابحة في الزبد ، ثم الأرز المفلفل . وأخيراً ، جميع أنواع الشواء . كان غطاء المائدة وفوطها مصنوعة من كتان بالغ الدقة نسجته النساء في منازلهن . وكانت الصواني التي تحمل عليها الصحون مصنوعة من الفضة ، وكذلك الاطباق والاقداح . وعلى طول الحائط امتد صفان من الدنان الكبيرة المنتفخة

امتلأت بنبيذ أودوبشسه وكوتنار . وخلف كل نبيل وقف خادم يصب النبيذ فى قدحه . وكان جميع هؤلاء الخدم مسلحين .

وفى فناء القصر ، كانت تشوى عجلتا بقر وأربعة خراف ، بينما فتحت ثلاثة براميل من النبيذ . وأكل الخدم وشربوا ، وكذلك فعل النبلاء . ولعب النبيذ برؤوسهم . وشرب النبلاء فى صحة الأمير هاتفين هتافات مدوية ، بينما رد الجنود المرتزقة بصيحات طرب ، وردت المدافع بطلقاتها .

وكانت الوليمة على وشك الانتهاء عند ما رفع فيفيرتسا كأسه ، وشرب فى صحة الأمير قائلا : « أننى أرجو لسموكم حكما طويلا سعيداً . فلتحكم البلد فى سلام ، وليشد الله فى رحمته من عزيمتك فى الكف عن ذبح النبلاء وتعذيب الناس » .

وقبل أن يتم كلامه ضربه المحافظ بصولجانه على جبهته ، ألقاه أرضا .

وصاح « أوه ، كيف تجرأون على التطاول على أميركم ... يا الفتيان ، انقضوا عليهم » .

وفى الحال امتثل الخدم الواقفون خلف النبلاء خناجرهم طعنوهم بها . ودخل الجنود المرتزقة القاعة بقيادة ضابطهم ، اطبقوا عليهم ملوحين بسيوفهم .

وفى نفس الوقت ، أخذ لابوشنيانو موتسوك من يده ، انسحبا بالقرب من نافذة تمكنه من مشاهدة المجزرة . كان

يضحك، بينما احمر موتسوك الذي كان يحاول الضحك إرضاء لسيده أن شعره يقف وأن أسنانه تصطك . كان هذا المنظر المخضب بالدم رهيبا حقا . ولتتصور سجرة طولها خمسة وثلاثون قدما وعرضها ثلاثون قدما ، وقد سوت أكثر من مائة رجل ، بعضهم قتلة والبعض الآخر مقضى عليهم بالموت . . . بعضهم جلادون والبعض الآخر محكوم عليهم بالإعدام . . بعضهم يقاتل بكل ما في اليأس من هياج والبعض الآخر بكل ما توفر للسكيرين من خبل . وكان النبلاء الذين لم يشكوا في شيء والذين لم يحملوا معهم سلاحا يضربون من الخلف بنذالة ويتساقطون دون أن يحاولوا المقاومة . وقد مات النبلاء المسنون وهم يرسمون علامة الصليب . ولكن عددا كبيرا من الشبان دافعوا عن أنفسهم دفاعا جنونيا . وقد تحولت السكراسي والأطباق والمطاوي في أيديهم إلى أسلحة . وانقض بعضهم دون أن يلقوا بالا لجراحهم ، على أعناق القتلة انقضاضا جنونيا وقتلوهم خنقا . وإذا توصل أحدهم لانتزاع سيف قاتل به حتى آخر نقطة من دمه .

وقتل عدد كبير جدا من الجنود المرتزقة . ولكن لم يبق نبيل واحد حيا في نهاية المعركة . وكانت سبعة وأربعون جثة ملقاة على أرض القاعة المرصوفة بالحجر . وانقلبت المائدة أثناء القتال ، وكسرت الدنان ، واختلط النبيذ بالدماء مكونا بركا فوق بلاط القاعة الحجري .

وبينما كان النبلاء يقتلون فى الطابق العلوى ، بدأت المذبحة أيضا فى فناء القصر . وهرب خدم النبلاء عندما أدركوا أنهم أخذوا على غرة . وتمكن أولئك الذين توصلوا الهرب متسلقين الأسوار من إيقاظ أهل النبلاء ، ودفعوا الناس للثورة باستنجادهم بخدم ورجال آخرين . وانقض جميع السكان على أبواب القصر وشرعوا فى فتحها عنوة ببلطهم ، ولم يقاوم الجنود إلا قليلا ، لأن النبيذ كان قد أفقدهم وعيهم ، بينما ازداد هياج الجماهير .

وعندما سمع لابوشنيانو بثورة الناس ، أرسل المحافظ ليسألهم ماذا يرغبون وماذا يطلبون ، وغادر المحافظ الغرفة .

وأدار الأمير وجهه نحو كبير الامناء وقاضى القضاة وقال :

ـــ حسنا يا موتسوك . . خبرنى . . ألم أكن على حق فى تخلصى من جميع أولئك الأوغاد ، وفى تطهير البلد من مثل هذا الوباء ؟

أجاب الندم الخسيس :

ـــ كنتم سموكم فى منتهى الحكمة . ولطالما رغبت أن أنصح سموكم بعمل هذا ، ولكنى رأيت أن سموكم قد سبقنى وأحسن صنعا بقتلهم ، لأن . . عما أن . . إلا إذا . .

قال لابوشنيانو مقاطعا موتسوك الذى بدا عليه الارتباك :

ـــ أرى أن المحافظ قد تأخر . ويخطر لى أن آمر الجنود بإطلاق النار على الغوغاء . حسنا ، بماذا تنصحنى أن أفعل ؟

ـــ نعم . . بالتأكيد . . دعهم يطلقون النار عليهم ، عندما يموت

مثل هذا العدد الكبير من النبلاء ، فماذا يساوى قتل عدة مئات من طغام الناس ؟ نعم .. بالتأكيد .. دعهم يقتلونهم جميعا !

قال لابوشنيانو باشمئزاز :

ـ كنت متوقعا مثل هذا الجواب . ولكن دعنا نرى أولا ماذا يريدون .

وفى أثناء ذلك كان الحافظ قد تسلق باب القصر ، وأشار إلى الجماهير قائلا :

ـ أيها القطيع الطيب . . إن سمو الأمير يسألكم ماذا ترغبون وماذا تطلبون ، ولماذا أنتم ثائرون ؟

وفغرت الجماهير أفواهها ، لم تكن تتوقع مثل هذا السؤال. لقد جاءوا إلى هنا دون أن يعرفوا ماذا يريدون ، وبدأوا يكونون جماعات صغيرة ، ويسأل بعضهم بعضا عما يجب عليهم أن يطالبوا به ، وأخيراً بدأو يصيحون :

ـ نريد تخفيض الضرائب .. الكف عن قضايا تحصيل الضرائب .. لانريد أن نشنق .. لانريد أن نهب .. نحن فقراء .. لاتوجد لدينا نقود .. لقد أخذ موتسوك نقودنا . . موتسوك ، موتسوك .. إنه يسلخ جلودنا .. إنه ينهبنا . . إنه مستشار الأمير .. فليقتل .. الموت لموتسوك .. نريد رأس موتسوك .

ووجدت الكلمات الأخيرة صدى فى جميع القلوب ، وكان مثلها كمثل شرارة أضرمت نارا هائلة . وبدت جميع الأصوات وكأنها صوت واحد ، وكأن هذا الصوت ينادى « نريد رأس موتسوك » وعندما عاد الحافظ ، سأله لابوشنيانو : « ماذا يريدون ؟ »

فكان جوابه « يريدون رأس موتسوك ، كبير الأمناء وقاضي القضاة »

قال موتسوك وقد أجفل ، وكأنه وطئ ثعبانا : « كيف؟ ماذا ؟ أنت لم تسمع جيدا . . أنت تمزح ، وهذا ليس وقت المزاح ، ما هي هذه الكلمات ؟ لماذا يريدون رأسي ؟ أنت حتما أصم . . أنت لم تسمع جيداً » .

قال الأمير الكسندرو :

— بل سمع جيد . . . إصغ . . . إن أصواتهم يمكن أن تسمع من هنا .

وفي الحقيقة ، ما أن كفت الجنود عن المقاومة حتى شرعت الجماهير في تسلق الاسوار صائحة بأعلى أصواتها : « اعطونا موتسوك . . . نريد رأس موتسوك » .

وصرخ الوغد :

— أوه . . . أنا مذنب كبير . . . أيتها العذراء المباركة ، لا تدعيني أهلك . أي أذى ألحقته بهؤلاء الناس ؟ أيتها الأم المباركة ، أنقذيني وأعدك بأن ابني كنيسة . . . أن أصوم بقية حياتي . . . أن أعطي بالفضة ايقونتك صانعة المعجزات في دير نيامت . . . أوه ، أيها الامير الرحيم ، لا تصغ للرعاع . لهؤلاء الاوغاد . . . اضربهم بالنار . . . دعهم جميعا يموتون . إنني نبيل كبير ، أما هم فليسوا سوى أوغاد .

قال لابوشنيانو بهدوء :

— إنهم أوغاد ولكنهم كثيرون . أليس من المؤلم أن أقتل مثل هذا العدد الكبير من الناس من أجل رجل واحد ؟ اقض بنفسك على نفسك . اذهب وحدك من أجل بلدك كما كنت تقول عندما أخبرتني أن البلد لا يريدني بل لا يحبني . إنني سعيد أن أرى الناس تنتقم منك الطريقة التي خدمتني بها ، عندما بعت جيشي إلى أنطون سيكاي ، ثم تخليت عني وذهبت فانضممت إلى جيش توشيا .

وتبين موتسوك من كلمات الطاغية أنه لا يوجد أدنى أمل في الهرب فصاح ، وهو ينتزع لحيته انتزاعا :

— أوه .. يا للهول ! دعني على الأقل أذهب ، وأدبر شئون بيتي .. اشفق على زوجتي وأولادي .. دعني أعترف بخطاياي .

وبكى وصرخ ونشج .

صاح لابوشنيانو :

— كفى .. لا تعول عويل المرأة .. كن رجلا .. ما جدوى اعترافك بخطاياك ؟ ماذا تستطيع أن تقوله القسيس ؟ أنك لص وخائن ؟ كل مولدافيا تعرف ذلك . هيه .. خذوه ، وسلموه للناس وقولوا لهم إن هذه هي الطريقة التي ينتقم بها الأمير الكسندرو من أولئك الذين ينهبون البلد .

وفي الحال بدأ المحافظ وضابط الجنود المرتزقة في جره إلى الخارج . وكان النبيل الحقير يعوي بأعلى صوت يستطيعه ويحاول المقاومة . ولكن ماذا تستطيعه يدا رجل هرم مسكين إزاء

أربع أذرع قوية تحمله جراً . ولقد حاول الوقوف . ولكن قدميه اصطدمتا بجثث النبلاء الآخرين . وانزلقتا فى الدماء التى تجمدت فوق البلاط الحجرى . وأخيراً . خارت قواه ، وجره رجال الطاغية ، وهو يكاد يموت من الرعب إلى خارج القصر وألقوا به إلى الجماهير .

وسقط الحقير بين أذرع هذا الثعبان المتعدد الرؤوس ، والذى مزقه فى لمحة عين إلى قطع صغيرة .

ونادت الجموع « فليحيا سمو الأمير » . وتفرقوا مغتبطين بهذه التضحية .

وبينما كان موتسوك يهلك بهذه الطريقة ، أمر لابوشنيانو بتنظيف المائدة وإزالة ماعليها . ثم فصلت رؤوس جميع النبلاء ، وألقيت جثثهم من النافذة . وبعد ذلك ، أمسك برؤوسهم ومضى فى تحمل يرتبها وسط المائدة واضعاً أقل النبلاء مقاما فى أسفل الصفوف ، وفوقهم من هم أعلى منهم درجة طبقا لعائلاتهم وممتلكاتهم . وهكذا حتى أقام هرما من سبع وأربعين رأسا على قمته رأس كبير المستشارين ووزير الحقانية العظيم .

ثم غسل يديه ، ومضى إلى باب جانبي ، وجذب التراس والعارضة الخشبية اللذين يغلقانه ، ودخل جناح الأميرة .

وعند بدأت المأساة جزعت الأميرة روكساندرا ، رغم أنها لم تكن تدرى شيئا عما يجرى . لم يكن فى استطاعتها أن تعلم سبب الضجة التى تسمعها ، لأن النساء لا يستطعن طبقا لتقاليد

القصر أن يغادرن جناحهن أبدا . والخادمات لا يمكنهن أن يتآمرن بالسير وسط جنود لا يعرفون شيئا عن النظام . وتجرأت إحداهن فخرجت ، وسمعت أن هناك ثورة ضد الأمير ، وحملت هذا النبأ إلى الأميرة .

وفزعت الأميرة لخوفها من سخط الناس ، ولذلك رآها الكسندرو عند دخوله تصلي أمام الأيقونة محاطة بأطفالها .

صاحت « آوه .. شكراً لله .. هو ذا أنت .. لقد كنت في أشد حالات الخوف »

ـ سأقدم لك كما وعدتك علاجا للخوف . . تعالي معي يا سيدتي العزيزة .

ـ ولكن ماهي هذه الصيحات والصرخات التي كنا نسمعها .

ـ لا شيء .. كانت مشاجرة بين الخدم .. لقد هدأوا الآن .

ثم أخذ روكساندرا من يدها ، وأدخلها إلى البهو .

وعندما رأت هذا المنظر الأصفر الرهيب ، أطلقت صيحة مريعة ، وسقطت مغشيا عليها .

قال لابوشنياتو باسما :

ـ ستظل النساء نساء . . يصبن الذعر حينما يجب عليهن أن يطربن .

ورفعها بين ذراعيه ، وحملها إلى جناحه الخاص . ثم عاد إلى البهو حيث وجد ضابط الجنود المرتزقة والمحافظ في انتظاره .

قال للضابط :

ـــ ألق رمم هؤلاء الكلاب على الأسوار ؛ وضع رؤوسهم فوق أعلى مكان فيها .

وقال المحافظ :

ـــ آتى بسباتشوك وستروبيتش .

ولكن سباتشوك وستروبيتش كانا فى ذلك الوقت بالقرب من نهر الدنيستر . وكان فرسان الأمير على وشك اللحاق بهما ، عندما اجتازا الحدود .

صرخ فيهم سباتشوك :

ـــ قولوا لمن أرسلكم : إننا سوف نتقابل مرة ثانية قبل أن نموت

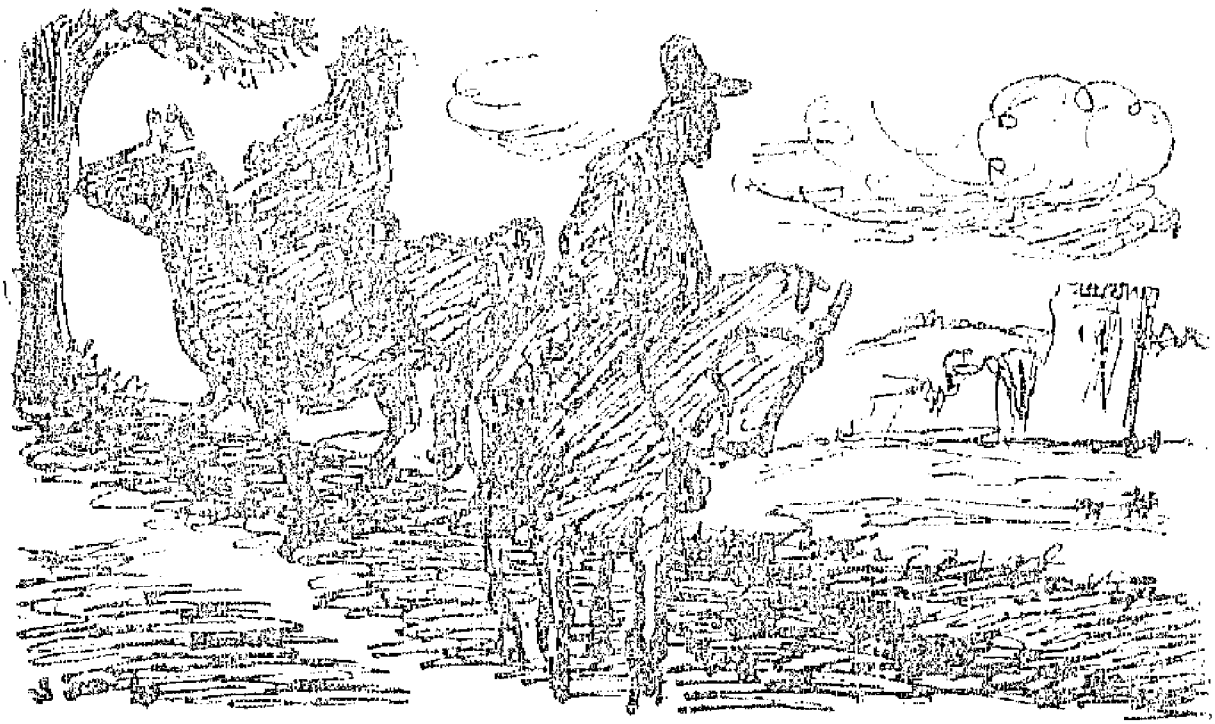

« إذا قدر لى أن اشفى ، فسوف
ألبس مكبرين منكم جلابيبا . . . »

مرت سنوات أربع على هذا الحادث ، احترم فيها الأمير الكسندرو الوعد الذى أعطاه للأميرة روكساندرا ، فلم يقتل نبيلا واحدا . ولكنه كى يشبع رغبة القسوة التى يحسها فى مشاهدة آلام إنسانية ، فقد احتال على جميع أنواع التعذيب .

كان ينتزع عيون جميع من يشتبه فيهم ويقطع أيديهم . . كان يشوههم ويحطمهم . ولكن شكوكه لم تكن قائمة على أساس فلم يكن أحد يجسر على أن ينبس ببنت شفة ضده .

ورغم هذا ، فقد كان قلقا لأنه لم يستطع القبض على سبا نتشوك وسترويتش اللذان كانا الآن فى كامينيتز ينتظران ويتمنيان فرصة سانحة . ولو أن ابنتين من بناته قد تزوجتا اثنين من الكونتات اللذين لهما نفوذ كبير فى القصر البولونى ، إلا إنه كان يخشى أن يطلب النبيلان مساعدة البولونيين الذين كانوا ينتظرون أى ادعاء لدخول مولدافيا . ومهما كان الأمر ، فقد كان النبيلان الرومانيان وطنيين كبيرين لا يمكن إلا أن يتبينا أن حربا وغزوا من الجيوش الأجنبية لا بد أن يحطما وطنهما .

ولقد كتب إليهما لابوشنيانو مرارا يسألهما العودة مقسما أغلظ الأيمان أنه لن يلحق بهما أى أذى . ولكنهما كانا يعرفان

القيمة الحقيقية لهذه الأيمان . ولكى يراقبهما مراقبة دقيقة ، فقد أقام فى حصن هورتين الذى عزز استحكاماته بصفة خاصة . وهناك أصابته الحمى التيفودية ، واستشرى المرض فى جسمه بسرعة ، وسرعان ما أحس الطاغية بأنه على أبواب الموت .

وأخذ يهذى من أثر الحمى . وتراءى له جميع ضحايا قسوته وهم يتوعدونه توعدا مخيفا باعثين فى نفسه الرعب ، وطالبين منه المثول أمام عدالة الله . وعبثا كان يتقلب على فراش الألم ، بحثا عن الراحة .

واستدعى المطران تيوفانس والأساقفة والنبلاء ، وأخبرهم أنه أشرف على الموت ، وسألهم الغفران متذللا . ثم توسل إليهم أن يرأفوا بابنه بوجدان الذى قد يرث العرش ، وأن يساعدوه لأنه صغير جدا ومحاط بأعداء أقوياء . وسوف يعجز عن الدفاع عن نفسه وعن بلده ، إلا إذا اتحد النبلاء وأحبوا الأمير وأطاعوه .

واسترسل :

— وفيما يختص بى ، فقد أزعجت — حتى لو افترض أننى شفيت — أن أصبح راهبا فى دير سلاتينا ، حيث سأكفر عن سيئاتى حتى نهاية حياتى . من أجل هذا ، فأنا أتوسل إليكم يا آبائى أن تحلقوا لى قمة رأسى كراهب ، حالما تلمحون أنى مشرف على الموت .

ولم يستطع أن يزيد حرفا واحدا . وتملكته الرجفة

وتصلب جسده في إغماء شبيه بالموت ، وظن المطران والأساقفة أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فقاموا بتكريسه ، ومنحوه اسم بابيزيا المشتق من بيتر الذي كان اسما له قبل أن يصبح أميراً .

ثم نادوا بالأميرة روكساندرا وصية على العرش حتى يبلغ ابنها سن الرشد . ونصبوا بوجدان أميرا لمولدافيا ، وأرسل الرسل في الحال إلى النبلاء المقيمين في البـــلد ، وإلى النبلاء المنفيين ، وإلى ضباط الجيش .

وعند الغسق ، وصل سترويتش وسبانتشوك . وتجلا عند منازل أصدقائهم ، وهرعا إلى الحصن . وكانت القلعة صامتة خاوية كأنها مقبرة مارد . ولم يكن هناك أي صوت إلا هدير أمواج الدنيستر ، وهي تلطم بانتظام الشواطىء الرمادية العارية والصيحات المملة للجنود الذين يقومون بالحراسة ، والذين كانوا يتكئون على حرابهم الطويلة في ضوء الشمس الغاربة . وعندما دخلا القلعة اندهشا لعدم وجود أحد . وأخيراً أرشدهما خادم إلى غرفة المريض . وكانا على وشك دخولها ، عندما سمعا ضجة عالية ، فتوقفا لينصتا .

واستيقظ لابوشنيانو من هذيانه .

وعندما فتح عينيه ، لمح راهبين : أحدهما واقف عند رأس سريره ، والآخر عند مؤخرة السرير . وهما لا يتحركان ، وكأنهما تمثالان من البرونز . ونظر إلى نفسه فوجد أنه يرتدي

جلبابا ، وان طاقية طويلة يستعملها الرهبان قد وضعت بالقرب من رأسه . وأراد أن يرفع يده ، ولكنه لم يستطع بسبب وجود مسبحة . وظن أنه يحلم ، وأغلق عينيه مرة ثانية ، ولكنه عندما فتحهما بعد برهة رأى نفس الأشياء : المسبحة وطاقية الرهبان ، والراهبين .

وسأله أحد الراهبين ، وقد رأى أنه ليس نائما :

ـــ بماذا تشعر ايها الأخ بايزيا ؟

وذكره هذا الاسم بكل ما حدث . وغلى دمه فنهض وصرخ :

ـــ من هما هذان الوحشان ؟ أوه . كنتما تداعبانى ، أليس كذلك ؟ أفتا .. أخرجا .. إننى أقول ، أخرجا .. سوف أقتلكم جميعا .

وبحث عن سلاح ، ولكنه لم يجد سوى الطاقية الطويلة ، فرمى بها غاضبا رأس أحد الراهبين .

وهرعت الأميرة وابنها والمطران والنبلاء والخدم إلى غرفته عندما سمعوا صياحه .

وفى تلك اللحظة بالذات ، كان النبيلان قد وصلا ، فأصغيا لدى الباب .

كان لابوشنيانو يصيح بصوت أجش مخيف :

ـــ أوه .. لقد أبلستمونى جلبابا .. ظننتم أنكم ستتخلصون منى .. أليس كذلك ؟ حسنا ، من الأفضل ان تطرحوا هذه الفكرة من رؤوسكم .. سوف يرد لى الله أو الشيطان صحتى و..

وقاطعه المطران قائلا :

ـــ لا تكفر أيها النفس .. هل نسيت أنك تموت ؟ تذكر أيها المذنب أنك راهب ، وأنك لم تعد أميراً . . فكر فى أن صيحاتك وكفرانك تفزع هذه السيدة البريئة ، وهذا الطفل الذى هو أمل مولدافيا ..

قال الرجل المريض وهو يحاول النهوض :

ـــ امسك لسانك أيها المرائى . . اغلق فمك . . إننى أنا الذى جعلت منك مطرانا ، وسوف أعزلك .. لقد ألبستمونى جلبابا ، ولكن لو قدر لى أن أشفى فسوف ألبس كثيرين منكم جلابيبا .. أما فيما يتعلق بتلك الكلبة ، فسوف أمزقها إربا هى وابنها ، كى أعلمها ألا تصغى إلى نصائح الرهبان الملعونين ونصائح أعدائى .. هى أكذوبة اننى راهب .. أنا لست راهبا . إننى أمير .. إننى الأمير الكسندرو . . إلى يا رجالى . . أين رجالى الشجعان ؟ إضربوا . . إضربوا بقدر ما تستطيعون من قوة .. أمركم .. اقتلوهم .. لاتدعوهم يهربوا .. أوه .. إننى أختنق . . ماء ، ماء ، ماء .

وانكفأ على ظهره لاهثا فى هياج وغضب .

وغادرت الأميرة والمطران الغرفة . والتقيا عند البـــاب بستو ويتيش وسبانتشوك .

قال سبانتشوك ، وقد أمسك بيد وكساندرا :

— يا صاحبة السمو هذا الرجل يجب أن يموت فى الحال.. خذى هذا السم وضعيه فى شرابه . !

صاحت فزعة :

— سم !!

واسترسل سبانتشوك :

— سم .. إذا لم يمت هذا الرجل فى الحال ، فإن حياة سموك وحياة هذا الطفل تصبحان فى خطر . لقد عاش الأب بما فيه الكفاية . ولقد أضر بما فيه الكفاية.. فدعى الأب يموت ، لعل الإبن يعيش .

وخرج خادم من الغرفة .

سألت الأميرة :

— ماذا هناك ؟

— لقد استيقظ المريض؟ وهو يطلب ماء ويسأل عن ولده ، ولقد أمرت ألا أعود بدونه .

صاحت الأم المسكينة وقد ضمت طفلها إلى صدرها :

— أوه .. يريد أن يقتله .

قال سبانتشوك :

— لا يوجد وقت للتردد ياصاحبة السمو . . تذكرى حكم الأمير شتيفا نيتزا ، واختارى بين زوجك اوولدك .

قالت الأم المسكينة ، وقد التفتت إلى الطبيبان بعينيها المملوءتين بالدموع :

ـ ماذا ترى أيها الأب ؟

ـ هذا الرجل قاس وفظيع يا إبنتي . . سلي الرب عصاه يرشدك . سأذهب وأعد كل شيء لرحيل الملك الجديد ، ولعل الله يغفر لأميرنا السابق . ولعل الله يغفر لك أيضا .

وبعد أن قال الأب المحترم تيوفانس هذه الكلمات ، غادر المكان .

وأخذت روكساندرا من أحد الخدم كأسا من الفضة مملوءة بالماء ، وأفرغت السم فيه تحت تأثير النبيلين ، وهي فاقدة الوعي تقريبا . ودفعها النبيلان إلى حجرة المريض .

وسأل سبانتشوك ستروبيتش الذي كان قد ترك الباب مفتوحا ، واختلس النظر من خلاله :

ـ ماذا يفعل ؟

ـ إنه يسأل عن ولده . . إنه يقول إنه يريد أن يراه ، يريد شيئا يشربه . . إن الأميرة ترتعش . . إنها تعطيه الكأس . . إنه لا يريد أن يأخذها .

وتقدم سبانتشوك واستل خنجره .

ـ لا . . لقد أخذها وشربها . . لعلها تأتي بنتيجة طيبة يا صاحب السمو .

وخرجت روكساندرا من الغرفة ، وهي شاحبة ترتجف ، واستندت إلى الحائط وقالت متهدة :

ـ ستقدمان حسابا عن هذا أمام الله .. أنتما اللذان دفعتماني إلى ارتكاب هذه الجريمة .

وعاد الطران وقال للاميرة :

ـ دعينا نمضي .

ـ لكن من سوف يتعهد هذا التعس المسكين ؟

أجاب النبيلان « نحن »

قالت الأميرة للطران :

ـ أوه يا أبي .. ما الذي دفعتني إلى فعله ؟

وخرجت معه ، وهي تنتحب .

ثم دخل النبيلان إلى حجرة الرجل المريض .

لم يكن السم قد سرى في جسمه بعد . وكان لابوشنيانو مضطجعا على ظهره في هدوء ، ولكن في ضعف . وعندما دخل النبيلان ، نظر إليهما طويلا . وبما أنه لم يتوصل إلى معرفتهما ، فقد سأل من هما ، وماذا يريدان .

قال النبيل الأول :

ـ أنا سترويتشي .

وأضاف الثاني :

ـ وأنا سبانتشوك ... والذي نريده هو أن نراك قبل أن تموت كما وعدناك .

قال لا بوشنيانو متنهداً :

ـ أوه .. ياعدواى.

وأكمل النبيل :

ـ أنا سبانتشوك .. سبانتشوك الذى أردت أن تذبحه حينما ذبحت السبعة والأربعين نبيلا ، والذى أفلت من مخالبك . . سبانتشوك الذى سلبت ثروته ، والذى تركت زوجته تتسول لدى أبواب المحسنين ..

وصاح الرجل المريض ضاغطا بيديه على بطنه :

ـ ما هذه النار التى تخترق جوفى ؟!

ـ انطق ، أيها الربه ، دع خادمك يرحل ، لأنك تموت . . إن السم يسرى فى جسدك .

ـ لقد دسستما لى السم أيها الوغدان . . أوه ، ياربه . . ارحم روحى . . أوه . . يالها من نار ! أين الأميرة؟ أين ابنى ؟

ـ لقد ذهبا ، وتركاك هنا .

ـ ذهبا ! تركانى هكذا ! أوه . . اقتلانى . . أنا لاأستطيع أن احتمل الألم أكثر من ذلك .

ووجه الكلام إلى سترويبتش :

ـ أوه . . أنت أصغر سنا ، فاغمد خنجرك فى صدرى كن رحيما . . خلصنى من الآلام التى تعذبنى . . اغمد خنجرك فى صدرى

ـ لا أريد أن ألوث خنجري النبيل بدم دنس لطاغية مثلك .

وازدادت الآلام .. كان الرجل المسمم يتلوى من الألم .

وصاح :

ـ أوه .. إن روحي تحترق .. أوه .. أعطياني ماء .. أعطياني شيئا أشربه .

وأمسك سبانتشوك بالكأس الفضية الموضوعة على المائدة وقال له :

ـ هذا هو .. إن بقايا السم هنا .. اشرب وارتو

قال الرجل المريض وهو يضغط على أسنانه :

ـ لا أريد .. لا أريد .. لا .. لا أريد .

وأمسك ستروبيتش به ، ولوى رسه فوق عنقه . وأخرج سبانتشوك خنجره من غمده ، وفتح أسنانه بطرفه المدبب ، وسكب في زوره السم المتبقي في قاع الكأس .

وحاول لابوشنيانو أن يدير وجهه إلى الحائط ، وهو يصيح كشرور رأى خشبة الجزار والبلطة التي سوف تقتله .

قال النبلاء :

ـ ما ذا ؟ لا تريد أن ترانا أكثر من ذلك ؟ يتحتم أن ترانا ، كعقاب لك .. تعلم كيف تموت يا من لم تعرف إلا كيف تذبح .

وأمسك كل منهما به بقوة ، ونظرا إليه بابتهاج جهنمي ، ونحياه جانبا .

كان الأمير التعس يعاني سكرات الموت ، وقد سال الزبد على شفتيه ، كان يضغط على أسنانه ، بينما بدت عيناه القاتمتان ، وكأنهما تكادان تنفذان من رأسه . وتكونت على وجهه قطرات من العرق البارد . . النذير المحزن بالموت ، وبعد نزع دام نصف ساعة ، لفظ أنفاسه الأخيرة بين أيدى جلاديه .

وهكذا انتهت حياة الكسندرو لابوشنيانز الذى لطخ بالدم فترة من تاريخ مولدافيا .

وفى دير سلاتينا الذى أقامه والذى دفن فيه ، يمكن للإنسان أن يشاهد حتى اليوم صورة الأمير وعائلته

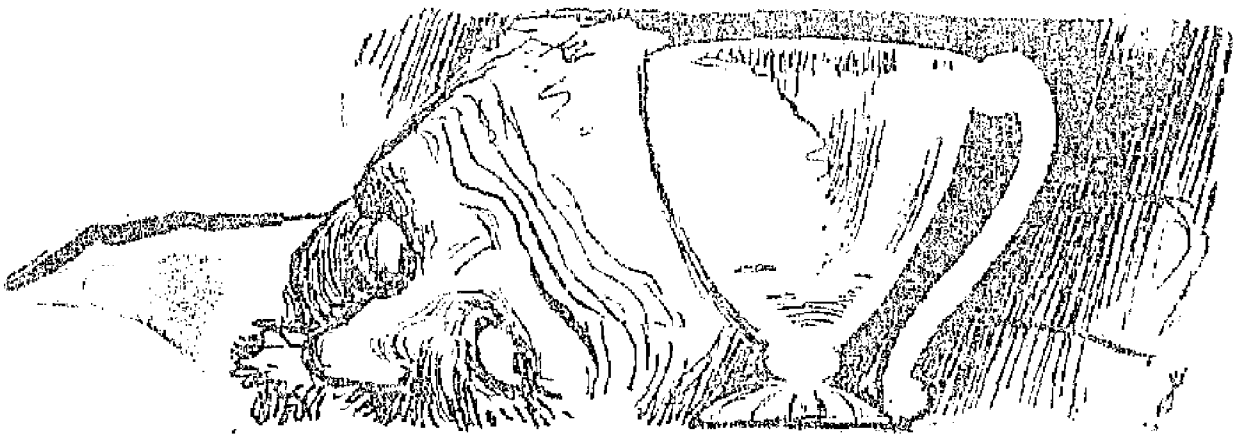

بوت لوكا كاراجيالى

« لم أدفع إيجار مسكنى ولقد استدعيت أمام القضاء وليس عندى شىء يدفئنى ، بل لا يوجد حتى معطف ، وإنى أنتظر من ساعة لأخرى مقدم وريث جديد ، وأحد أولادى مريض ، ولكى تبلغ المأساة مداها ، فقد بدأت بكتابة مسرحية وأصبت بالتهاب حاد فى جفون العينين ، لأنى اضطررت للعمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، إننى أتلوى من الألم ، ولا أدرى ماذا أصنع ؟! . . »

خطاب كتبه كاراجيالى فى سنة ١٨٩٠ .. كتبه بعد أن كتب ونشر معظم مسرحياته الهامة ، ومن بينها مسرحيته الرائعة « رسالة مفقودة » .. كان من المنتظر أن يكون فى بسطة من العيش ، وهو الكاتب القدير ، ولكنه كان مفلسا . . لأن الاستبداد أراد ذلك . . لأن الحكومة التى ألفت بين مصالح الإقطاع والبورجوازية الكبيرة كانت تحاصر كاتب الشعب حصاراً اقتصاديا رهيبا . . ولكنه لم يهن ولم يستسلم فى يوم من الأيام .

ولأن كاراجيالى لم يكن من كتاب « البرج العاجى » ، ولأنه كان من الكتاب الذين خاضوا الحياة الأليمة المناضلة التى مر بها الشعب الرومانى ، وألم بجميع جوانبها مشحذاً قلمه كسلاح حاد

باثر فى خدمة المغلوبين على أمرهم ونصرة قضاياهم والتهكم على ظالميهم ومستغليهم ، فلا يمكن فهم إنتاجه الأدبى والفنى فهما حقيقيا وتقديره تقديراً صحيحا إلا مرتبطا ارتباطا وثيقا مع صراع الجماهير المرير ضد طبقة من الأثرياء الزراعيين والصناعيين استحلوا لأنفسهم كل شىء ونصبوا أنفسهم حكاما مطلقين يتلاعبون بمظاهر ديموقراطية زائفة يضللون بها ضحاياهم .

* * *

ولد يون لوكا كاراجيالى فى ١٣ يناير سنة ١٨٥٢ فى قرية هايمانال بالقرب من مدينة بلويستى ، وهايمانال تحمل اليوم

وكان إسم كراجيالى بين أفراد عائلته همان احترفا التمثيل واشتهرا فيه ، ولقد كتب هذان الممثلان أيضا بضعة مسرحيات ، وأراد كاراجيالى أن يسير على غرارهما ، وأن يحترف التمثيل هو الآخر . ومن ثم ، اتجه بعد أربع سنوات قضاها فى الليسيه بمدينة بلويستى إلى بوخارست ، حيث واظب على حضور دروس الإلقاء والتعبير الوجهى التى كان يدرسها عمه كوستاكيه كاراجيالى .

ولكن موت أبيه فى سنة ١٨٧٠ جعله مضطراً لأن يعول عائلته ، وهو فى الثامنة عشرة من عمره .

امتهن كثيراً من المهن ليواجه مسئوليات الحياة التى اضطلع بها مبكراً . . اشتغل ملقنا ، وناسخا ، ومصححا لجريدة ، وضابطا لمدرسة ، وموظفا فى شركة احتكارية .

وعلى الرغم من المسئوليات المالية الكبيرة التى كانت ملقاة على عاتقه ، فقد عرف كيف يستخدم قلمه فى الصحافة للتشهير بالأوضاع الشائنة فى السياسة . وما لبث أن شق له طريقا فى الأدب ككاتب مسرحى ، فوضع أولى مسرحياته فى سنة ١٨٧٨ باسم « ليلة عاصفة » .

فى تلك المسرحيـــة ذات الفصلين ، نال كارا جيالى من البورجوازية الرومانية وسخر منها سخرية مريرة . وهى تريد أن تعيش - بعد مرور ثلاثين عاما على ثورة ١٨٤٨ - على الجمل الجوفاء التى تبقت لها من تلك الثورة ، فى حين أن فعالها كانت تتعارض تعارضا تاما مع اقوالها .

ولم تتوان البورجوازية فى الدفاع عن نفسها ازاء القلم الساخر الجديد وخطر لها أن تحطمه قبل أن يشتد ساعده ويصبح خطرا حقيقيا عليها . وامعنت فى التشهير به ومحاولة اسقاط قدره ، لعلها تصل بذلك الى بعث التردد فى نفسه ، فيستخدم قلمه استخداما آخر بعيدا عنها ، وعن جرائمها ومباذلها .

ولكنها كانت واهمة ، فلقد كانت الحملة الكاذبة التى شنتها البورجوازية على كارا جيالى حافزا له على تصويب قلمه نحوها بطريقة عميقة مضاعفة . ومن ثم توالت كتاباته تحمل عليها حملة شعواء ، وتصورها فى ابشع الصور ، إلى ان بلغ الذروة فى مسرحية « رسالة مفقودة » .

ومسرحية « رسالة مفقودة » تتميز عن سابقاتها بأنها ليست عرضا لبعض أوضاع معينة من النظام الذي كان قائما في رومانيا إذ ذاك ، ونقد تلك الأوضاع ، وإنما كانت تحليلا عميقا للأسلوب السياسي لذلك النظام ، وتمزيق القناع عنه في شتى صوره .

« رسالة مفقودة » هي قصة قصاصة غرامية أرسلها مدير احدى المديريات في رومانيا ، والذي هو من حزب المحافظين ، الى زوجة رئيس اللجنة المحلية للمحافظين في المديرية . ووقعت القصاصة في يد مرشح حزب الأحرار هناك ، فاتخذها مادة للمساومة كي يصبح نائبا . ان السلطان في يد حزب المحافظين ، ومن ثم فالمدير المتورط يجب أن يساعده ويضمن له المقعد النيابي . ولكن رغم هذه الوثيقة فقد انتخب مرشح المحافظين نائبا ، لأنه اثبت انه أجـــدر من مرشح الأحرار في عمليات المساومة والاحتيال .

« رسالة مفقودة » هي قصة مهزلة الانتخابات في نظام سياسي متعفن يقوم بالأمر فيه الإقطاعيون والبورجوازيون . ولقد امكن لأسلوب كاراجيالي اللاذع أن يجعل من هاتين الطبقتين سخرية تضحك الناس وتوقظهم وتحفزهم لوضع حد لفسادهما الذي استشرى .

ولم يكتف عقل الكاتب الواقعي الكبير بالتزام ما يجري في عصره ، بل استطاع أن يتنبأ بتطور البورجوازية ، وان يرسم

بعض افرادها في أوضاعهم التي ايدها التطور التاريخي بعد ذلك.
لقد شرع كاراجيالي قبل وفاته بقليل في وضع مسرحية تطورت فيها شخصيات « ليلة عاصفة » و « رسالة مفقودة » فاصبحت من كبار اصحاب الأراضي البترولية ، ونوابا ، ووزراء ، واصحاب دور صحفية .

* * *

وعندما قدم كاراجيالي في سنة ١٨٩١ كتابه « المسرح » ومسرحيته « الانتقام » الى الأكاديمية الرومانية ، رفضت الأكاديمية أن تمنحه جائزة . . . كان واضحا ان الحشالة التي اجلستها العصابة الحاكمة اذ ذاك على عرش الثقافة والأدب لا يمكنها ان تتذوق باي حال من الأحوال ، وبالتالي أن تقدر فنا يهدد مصادر رزقها الشائنة .. ان السادة اللصوص لا يرتاحون لما يكتبه كاراجيالي ، ومن ثم فإن أعضاء الاكاديمية المأجورين يجب أن لا يرتاحوا ايضا . . . . بقطع النظر عن القيمة الفنية الحقيقية لأعمال الكاتب الكبير .

تعددت الوسائل التي استعملتها الرجعية الرومانية مع يون لوكا كاراجيالي رامية الى تحطيم انتاجه الفني ، أو تشويه هذا الانتاج ، أو أرغامه على التسليم لها والسير في ركابها والتربع على مقعد من مقاعد الاكاديمية — هو الآخر — الى جانب المأجورين . ولكنها فشلت فشلا ذريعا أمام صلابة الكاتب

وصدقه وحبه للشعب وفهمه الحقيقي لمهمة القلم ورسالة الفن . . تحطمت كل محاولاتها هي ، بينما كان انتاج الفنان يزدهر يوما بعد يوم نابضا بالحياة موعودا بالخلود . . . وخطر لها ان تتهمه بأن انتاجه الرائع ليس له ، وانه يسطو على انتاج غيره ويدعيه لنفسه ، ظنا منها ان اللصوصية التي تمارسها يمكن أن يمارسها فنان شعبي صادق . وتحطمت هذه الفرية الجديدة على قاعدة البناء الفني الشامخ الذي أقامه كاراجيالي على مر السنين .

ولكنه اضطر في نهاية الأمر لأن يغادر رومانيا في سنة ١٩٠٤ ، ورحل الى برلين حيث اقام فيها بقية سنوات حياته ، الى أن مات هناك في ٢٢ يونيو سنة ١٩١٢ .

وفي برلين ، لم يقطع كاراجيالي صلته بوطنه بل ظل يتتبع احداثه عن كثب . ولما اتته انباء الثورة التي قام بها الفلاحون الرومانيون في سنة ١٩٠٧ ، وكيف اشترك الحزبان الحاكمان ممثلان في تراخاناكيه (من المحافظين) وكاتزافينكو (من الأحرار) في قمعها بمنتهى القسوة ، وكيف اغرق الضباط والجنود الذين يأتمرون بأمرهما احد عشر فلاحا في بحار من الدماء . . انتفض قلمه غضبا ، فكتب كتابه الشهير « ١٩٠٧ ، من الربيع إلى الخريف » الذي يعتبر دراسة للاسباب الحقيقية التي تؤدي الى ثورات الفلاحين ، والتي يمكن تبينها كامنة في النظام السياسي والاجتماعي لرومانيا اذ ذاك . وتفتش عن اسلوب كاراجيالي

الساخر ، فلا تكاد تجد له اثرا فى ذلك الكتاب . . أن قلمه كان حملة صادقة عنيفة صارخة ضد المجرمين الذين لا يكتفون بافقار الشعب الرومانى وامراضه وتجهيله ، بل لا يتورعون عن اهراق دمائه بالجملة ، إذا خطر له ان يرفع صوته . . وكأنه كان يكتب بمداد من تلك الدماء الزكية الطاهرة .

ولم يكن كاراجيالى فى انتاجه بعيدا عن الحركة العالية التى كانت اذ ذاك فى دور التكوين فى رومانيا . وقد قربته كراهيته للاستغلال من هذه الحركة . كما ان هذه الحركة ساهمت فى شحذ قلمه الساخر وتصويبه تصويبا حاسما ضد مستحلى عرق الآخرين ، وتنمية رد الفعل الايجابى لتلك السخرية لدى عدد كبير من الناس . ولقد كتب كاراجيالى فى العدد الصادر فى أول مايو سنة ١٨٩٣ من مجلة « موفتول رومان » يقول إن بين العمال والمجلة التى يحررها « مسألة ضخمة مشتركة ، هى أن كلا منهما يكافح من أجل اقامة عالم احسن واشرف . ولقد اختاروا هم طريق التنظيم والكفاح السياسى ، بينما اخترنا نحن طريق التهكم . . . طريق السخرية المرة بالسجالين الذين يحكمون العالم . إن مانحطمه هو جزء مما يحطمونه هم أيضا » .

ولقد كتب كاراجيالى عددا كبيرا من القصص القصيرة نقد فيها الاوضاع الظالمة والاتجاهات الخاطئة والمواقف المزرية ومن بينها « الرومانيون الخضر » التى حارب فيها الوطنية الضيقة

الأفق ممثلة فى جماعة اسمت نفسها « الرومانيون الخضر » ، وادرجت فى تعاليمها التى تلقنها لاعضائها « كراهية كل ماهو غير رومانى ... باستثناء رؤوس الأموال غير الرومانية » . ولقد كتب كاراجيالى تلك القصة قبل ظهور الفاشية فى رومانيا .. وكأنه يتنبأ بقدومها ممثلة فى كتائب القمصان الخضراء .

ودفعه إدراكه السياسى السليم إلى أن يحارب فى نفس الوقت « الكوزموبوليتزم » تلك التى يدعيها ابناء الطبقة الماليـــة المترفون الانحلاليون ، ويروجون لها على اعتبار أنها « وطنية واسعة الأفق » . انها نوع من النزوات التى يتعلق بها الخونة خلال سياحات اللهو والتبذل التى يقومون بها خارج بلادهم ، ورقاعة التحدث باللغات الأجنبية متجاهلين لغة وطنهم .... أنهم مدعو الكتابة والشعر الذين يشوهون لغة الوطن بتعبيرات واصطلاحات اجنبية لاتروق إلا للطبقة المترفة الأنحلالية التى يكتبون لها ... ولقد أمسك بهم جميعا كاراجيالى بطرف قلمه اللاذع ، كأنهم حشرات محملة بالميكروبات .

* * *

لقد أحتفلت الجمهورية الشعبيه الرومانيه فى ٣ يناير سنة ١٩٥٢ بمرور مائة سنة على مولد الكاتب الكبير احتفالات نقطع بأن القلم الصادق مهما لاقى وعانى ، فلا بد له يوما أن يجد تقديرا من شعب تحرر ، ومن حكومة هى الممثلة الحقيقية

لهذا الشعب الذى مضى اليوم يتعرف على الأقلام التى كانت تكتب قصة كفاحه المرير ، والتى حاول الطغيان بجميع الطرق أن يحطم انتاجها الرائع ... ولكنه لم يحطم هو ، وبقى الانتاج الرائع ملكا للشعب يتذوقه وينشره ويقدر واضعيه ويحلهم من نفسه مكانا رفيعا .

ها هو ذا كاراجيالى عضو فى أكاديمية الجمهورية الشعبية الرومانية ... عضو بعد وفاته ... هو وايمينسكو وغيرهما من كبار الكلاسيكيين الرومانيين المناضلين الذين أنكرتهم حكومات الخونة والأكاديمية التابعة لهم .

وكانت مسرحيات كاراجيالى لا تمثل الا نادرا . ولكنها اليوم تمثل فى رومانيا وفى خارج رومانيا . وعدد الليالى التى مثلت فيها « ليلة عاصفة » خلال سنة ١٩٥٠ — ١٩٥١ فقط يساوى مائة مرة عدد الليالى التى مثلت فيها خلال ٦٥ سنة تحت حكم التآلف الوحشى « الاقطاعى — البورجوازى » .

لقد غادر كاراجيالى فى يوم من الأيام وطنه منفيا ، ولكنه اليوم يعود اليه ممثلا فى كتبه ومسرحياته وقصصه التى يطبع منها الآن مئات الألوف من النسخ .

أنا أيضا بى ضعف : أنا فى نهاية الأمر رجل . إن رغبات صديقى الرقيقة مدموازيل ماري بو بيسكو هى بالنسبه إلى أوامر أخضع لها من طبيب خاطر خضوعا متزايداً ؛ بما أن صديقى — وأنا ارى هذا جيداً — لا تنسى أبداً استعمال تأثيرها المطلق على ، والذى تعرف أنها تتمتع به . . . فلن ماذا تريده منى هذه المرة ؟

« صديق العزيز »

إنى أعرف أنك صديق حميم للمدرس كوستيكا بونيسكو ، وأنه لا يرد لك طلبا . وسأكون محظوظا لك كثيراً إذا استطعت أن تجعله يعطى ٧ فى اللغة اللاتينية للتلميذ ميتيكا جيورجيسكو الذى هو فى السنة الرابعة بمدرسة الليسيه رقم ١ . وبدون ذلك فإن الصبي الصغير الذى هو من أقرب أقربائى لن يستطيع الانتقال إلى السنة التالية (وهو الآن معيد مرتين) ، فتكون كارثة كبرى لعائلته — عائلة طيبة جداً — ، ويصبح ألماً كبيراً لى .

أصدق عواطفى
دائماً لك
ماري بو بيسكو »

آه ، أيتها الرقة التى لا يمكن مقاومتها ! كم أنت بارعة فى إصدار الأوامر ! وكم هو مطلب موفق هذه المرة ! أن يونيسكو به ضعف أيضا ، وهو فى نهاية الأمر رجل . أنه شديد التعلق بى ، ولا يرد لى طلبا .

وفى الحال قفزت إلى عربة ، وأسرعت إلى منزل يونيسكو صديق اللاتينية .

— عزيزى كوستيكا ، لقد جئت إليك واثقا من أنك لن ترفض ما أطلبه منك . أننى أعرف إلى أى حد يمكننى الاعتماد على صداقتك ، ولا أريد أن أشك لحظة واحدة فى أن هذه المرة والأمر يتعلق . . . أنت تفهم . . . بمسألة تهمنى إلى حد أنه لو لم أكن مقتنعا تمام الاقتناع بأنك أنت الذى أبدى نحوى دائما صداقة لم تتزعزع أبدا ، وأننى بدورى أستطيع أن أقول . . . بالاختصار . . .

قال يونيسكو :

— بالاختصار ، لقد فهمت . . . ما كان هناك داع لأن تدور حول المسألة . لقد جئت دون شك تلتمس شيئا لتلميذ خسيس .

— أنه ليس تلميذا خسيسا يا كوستيكا . إنه صبى من عائلة طيبة جدا . . . قريب لى .

— من يدرى أى تلميذ بليد . . . أى تلميذ خائب يكون ؟

ـ أنت مخطئ يا عزيزي كوستيكا . . . أنه أحسن الفتيان . . . لا تدعني أتخبط في حيرة ، أرجوك . . . لقد جئته إليك واثقا من أنك لن ترفض ما أطلبه منك . إنني أعرف إلى أي حد يمكنني أن أعتمد على صداقتك . ولا أسمح لنفسي في أية لحظة من اللحظات أن أشك في أن هذه المرة ، والأمر يتعلق . . . أنت تفهم . . . بمسألة . . .

ـ هيا ، دعك من كل هذه التوهات . أنك تعرف إني أحبك كثيراً . إن مثل هذه التعبيرات المبتذلة لا تجوز بيننا . أية درجة تريد أن أعطيها لحسوبك الصغير الملعون .

ـ ؟ ياعزيزي كوستيكا .

ـ لكن إذا كان الحيوان لا يعرف شيئا ؟

ـ لديك من هذه الحيوانات الكثير . ولنفترض أخيراً أنه لا يعرف شيئا ، فلن يكون بحسب ما أعرف أول أو آخر من ينجح دون أن يعرف شيئا . . . أنني أتوسل إليك ياعزيزي كوستيكا ، إذا أعاد الصبي سنته الدراسية مرة أخرى فستكون كارثة كبرى لعائلته ـ عائلة طيبة جداً ـ ، وسيكون ألما كبيراً لي . . .

قال كوستيكا :

ـ آه ، أن توسلات الصديق لا يمكن مقاومتها . وأنت بارع في هذه التوسلات كما لم يبرع فيها أحد . حسنا . . .

فليكن . . . سأفعل ما يرضيك هذه المرة أيضا . . . وسأعطى لهذا الأفاق الصغير .

ـــ شكراً ياعزيزى كوستيكا . . . إن لك قلبا من ذهب .

ـــ ما اسمه ؟

ونقبت فى الحال فى جيبى بحثا عن خطاب مدموازيل مارى بويسكو . ولكنه لم يكن هنالك . . . فقلت لكوستيكا :

ـــ انتظر لحظة .

وخرجت مندفعا كالصاعقة ، وقفزت إلى عربة ، وهرعت إلى منزلى ... وهناك أيضا . لا أثر للخطاب ... فخرجت مسرعا لأذهب إلى منزل مدموازيل بويسكو .

ـــ أيتها الصديقة الرقيقة . . . إن الأمور تسير جيداً . لقد حصلت من المدرس على الدرجة التى تريدينها . ولا يلزمنى الآن سوى اسم محسوبك . ما اسم الصبى الصغير ؟

ـــ لقد كتبت لك اسمه فى خطابى .

ـــ للأسف لقد أضعت خطابك فى منزل وسط أوراق أخرى . والوقت يلح . . . ولكى لا أضيع وقتى فى البحث عنه جئت إلى منزلك . . . ما اسمه ؟

أجابت صديقتى اللطيفة الصغيرة :

ـــ أؤكد لك أنى لا أتذكر اسمه . ولكى أحيطك علما بكل شىء ، أعرفك بأن مدام بريوتيسكو التى هى صديقة حميمة

لى ، والتى أنا شديدة التعلق بها ، ولا أرد لها طلبا ، قد رجتنى بأن أكتب لك لأنها تعلم أنك شديد التعلق بى وأنك لم ترد لى طلبا أبدا ، وأنك صديق حميم للمدرس كوستيكا يونيسكو الذى هو شديد التعلق بك والذى لا يرد لك طلبا هو الآخر .

قلت :

ـــ فى مثل هذه الحالة ، ما العمل ؟

ـــ إذهب إلى منزل مدام بريوتيسكو ، واطلب منها اسم الصبى الذى أوصتنى به كى أوصيك به .

ـــ احتراماتى . . . سأولى مسرعا .

وها أنذا أجرى بأقصى سرعة حتى منزل مدام بريوتيسكو . . . وقلت لها :

ـــ مدام بريوتيسكو ، هذا ما جاء بى : لقد أوصيت مدموازيل مارى بويسكو بفتى صغير ، كى توصينى به ، كى أوصى به ـ أنا بدورى ـ صديق كوستيكا يونيسكو مدرس . . .

ـــ نعم . . . أذكر .

ـــ حسنا . . . ما اسمه ؟

ـــ ألم تكتبه مارى لك فى خطابها ؟

ـــ نعم . . ولكنى أضعت الخطاب . وربما أن مدموازيل

بوبيسكو نسيت اسمه ، فقد طلبت منى أن آتى إليك كى تعطينى الإسم .

ـــ أنا . . . الحق أقول ، لا أذكر الاسم . . . لأن اسمه كان مكتوبا فى قصاصة ورق تركتها فى منزل مارى . لكن فى استطاعتنا أن نعرفه من مدام ديا كونيسكو ـــ أنها تقيم على مسافة قريبة جداً من هنا ـــ التى رجتنى أن أفعل ذلك من أجلها ، لأنها تعلم مدى تعلق مارى بى ، وأنك لن ترد طلبا لمارى ، وأن المدرس كوستيكا يونيسكو لا يرد لك طلبا أبداً .

قلت :

ـــ إذن ، ما العمل ؟

ـــ انتظر لحظة ، سأستدعى مدام دياكونيسكو . . . إنها تقيم بجوارنا .

ولم أنتظر طويلا . فقد جاءت مدام ديا كونيسكو : لكن يالبقادير ! إنها تجهل هى أيضا اسم محسو بنا الصغير . لقد أعطت قصاصة الورق لصديقتها مدام بريوتيسكو .

ـــ ما العمل ؟

ـــ اهرع إلى منزل مدام إيكونوميسكو .

وهرعت إلى منزل مدام إيكونوميسكو . . . ومن هناك إلى

منزل مدام ساكلاريسكو . ثم إلى منزل مدام بيسكو بيسكو ... وأخيراً وصلت إلى المصدر . . . أن الفتى الصغير ابن أخت مدام بيسكو بيسكو . . . ابن أختها مدام داسكاليسكو : ميتيكا داسكاليسكو . . .

نحن لا يرد بعضنا لبعض طالبا : مدام بيسكو بيسكو لمدام داسكاليسكو، ومدام ساكلاريسكو لمدام بيسكو بيسكو ، ومدام إيكونوميسكو لمدام ساكلاريسكو ، ومدام دياكونيسكو لمدام إيكونوميسكو، ومدام بريوتيسكو لمدام دياكونيسكو، ومدموازيل بوبيسكو لمدام بريوتيسكو، وأنا لمدموازيل بوبيسكو ، وكذلك صديق كوستيكا يونيسكو لى ...

. . . وجريت إلى منزل كوستيكا يونيسكو .

— عزيزى كوستيكا ، لاتدعنى أتخبط فى حيرة . . . لقد جئت إليك واثقا أنك لن ترفض ما أطلبه منك . أننى أعرف إلى أى حد يمكننى أن أعتمد على صداقتك ، ولا أسمح لنفسى فى أية لحظه من اللحظات أن أشك . . .

— هيا ياصديق القديم . . . دع هذه الحماقات جانبا

— أرجوك أن تعطيه ٧ كما وعدت

— لمن إذن ؟

ـــ ليتيكا داسكاليسكو .

ـــ ميتيكا داسكاليسكو ؟ أنى لا أذكر أن لدى تلميذاً بهذا الاسم . . .

ـــ هذا مستحيل .

ـــ فلتر . . .

ومضى يراجع دفاتره .

ـــ لا . . . ليس لدى أحد باسم ميتيكا داسكاليسكو فى السنوات الصغيرة . لا بد أنك أخطأت . لا بد أنه فى سنة كبيرة .

وجريت . . . هـــذه المرة مباشرة إلى منزل مدام بيسكو بيسكو . . .

ـــ مدام بيسكو بيسكو . . . فى أية سنة امتحن ابن أختك ؟

ـــ فى السادسة .

قلت :

ـــ آه . . . حسنا .

وعدت مسرعا إلى منزل يونيسكو ، وقلت له :

ـــ ميتيكا داسكاليسكو الذى أعنيه فى السادسة .

ـــ فى هذه الحالة فهو ليس لدى ، وإنما لدى جيورجيسكو . هل تعرف جيورجيسكو ؟

ـــ لا . . ، أنت لا تعرفه أيضا ؟ ومع ذلك فهو زميلك .

ـــ لكن نعم . . . نحن صديقان حميمان جـــداً . إنه لايرد لى طلبا .

قلت :

ـــ فى هذه الحالة ، نوسل إليك ألا تدعنى أتخبط فى حيرتى . . . إننى أعرف أننى أستطيع الإعتماد على صداقتك ، ولا أسمح لنفسى بأن

ـــ هل تريد إنهاءها فى أقرب وقت ؟ إن عربتك لازالت هنا .. قدنى بسرعة إلى منزل جيورجيسكو .

ـــ هيا بنا .

ووصلنا . . . وانتظرت يونيسكو فى العربة وعاد بعد لحظات .

ـــ لديك حظ كبير . . . لقد وصلت فى الوقت المناسب بالضبط . لو أننا تأخرنا ربع ساعة لوصلنا فى الساعة الثانية ، ولكان هو قد حمل أوراقه إلى المدرسة وقيد الدرجات فى السجل . . . كانت درجة محسوبك ٣ .

ـــ والآن ؟

ـــ ٧ .

قلت لنفسي هذا ما يمكن أن يترتب على تأخير بضع دقائق . أية كوارث كان من الممكن أن ينزلها هذا التأخير على رأس طفل ! كان ميتيكا داسكاليسكو سيعيد السنة للمرة الثالثة ، على الرغم من أنه محبوب جداً من والدته مدام داسكاليسكو ، التي هي صديقة لمدام بيسكو بيسكو ، التي هي صديقة مدام ساكلاريسكو ، التي هي صديقة مدام إيكونوميسكو ، التي هي صديقة مدام دياكونيسكو التي هي صديقة مدام بريوتيسكو ، التي هي صديقة بل صديقة عزيزة جداً للمحسناه بوبيسكو ، التي أسميها حبا جما أنا نفسي ، الذي

آه ما أزهاب !

منذ بضع سنوات ، كان الشاب كوريولان دراجانيسكو من بين طلبة جامعتنا المرموقين . . . ذهن متوقد . . . إرادة من حديد . . . تكوين بطل . وفوق ذلك ، فقد منحته الطبيعة موهبة خطابية لها تأثير لا يقاوم .

ومن المفهوم طبعا ، أنه بمثل هذه الصفات ، لابد أن يصبح كوريولان زعيما لا ينازع على زملائه . وكان هو الذى يقود جميع حركات الطلبة .

وفى كل مرة ، أزمعت الشبيبة الجامعية السمحة ، وقد أثارتها الأحداث السياسية ، أن تقول هى الأخرى كلمتها ، كان كوريولان يجمع الطلبة وينظمهم ويشجعهم ويلهبهم ويقودهم إلى تمثال ميشيل الشجاع .

وكان كوريولان فى ذلك عظيما لا يجارى . وهو يغدو معجزة امام تمثال بطل كالوجارينى . كانت خطبه مثيرة إلى حد أن الإنسان يعجب ، وهو يصغى إليها ، من جمود البطل المصنوع من البرونز ، وكيف لا يترجل عن جواده مثل الفارس دون جوان كى يشترك فى المظاهرة ؟ !

وكلما سمعت الخطب النارية التى يلقيها كوريولان فى الشبيبة

المسرحة — ولقد سمعته أكثر من مرة — يخطر لى أن هذا الشاب تأخر فى الظهور على الأرض مائتى أو ثلاثمائة سنة على الأقل . آه ! كان يجب أن يولد يوم كان الطغيان يقهر الشعوب ، وحقوق الإنسان لم تعلن بعد ، والعالم يرتجف مذعنا تحت وطأة الظلم . كنت أريد أن أرى الطغاة فى صراع مع كوريولان دراجانيسكو . كان من المؤكد ألا يتأخر إعلان حقوق الإنسان إلى هذا الحد .

لكن اليوم ؟ اليوم ، ونحن نتمتع بعدد كبير من الحريات ، ولم يعد الطغيان إلا حلما بشعا ، وبناء التقدم لا يعترضه عائق . . .

ومع ذلك ، فاليوم أيضا ، وفى كثير من الظروف ، يتعرض النظام العام للخطر ، لولا مساعدة الشبيبة المتحمسة .

ولكى أعطيكم فكرة عن كوريولان دراجانيسكو ، وعن مقدرته كخطيب للشبيبة ، لن أذكر جملا رنانة ، سأكتفى بعرض بعض فقرات من « صديق الشعب » عند ما كان يذهب هذا الشاب كثيراً إلى تمثال ميشيل .

فلنلق نظرة .

« خرجت الشبيبة الجامعية ، وعلى رأسها كما هو الحال دائما كوريولان دراجانيسكو طالب الحقوق الفذ المرموق ، من حديقة تشيشميجيو فى جمع كثيف . واتجهت إلى تمثال ميشيل الكبير فى فترة الأحداد التى يمر بها البلد والشعب والأمة .

وتقدم الطلبة فى أدق نظام . ولكن عند ملتقى الشارع الكبير حاصرهم كوردون من الصف ضباط والمخبرين وحاملى العصى الغليظة .

وعندما اعترض الشاب كوريولان دراجانيسكو ، وكذلك جميع الشباب المتجمع ، باسم الحقوق التى كفلها الدستور . لقد قطع عليهم رجال البوليس الأدنياء الطريق . وعندئذ صاح كوريولان دراجانيسكو الشجاع : أصدقائى . . . اتبعونى إلى تمثال ميشيل الشجاع . . . إلى ميشيل الشجاع . وأراد أن يتقدم .

وتحركت الشبيبة المتحمسة خلف خطيبها الشجاع . وعندئذ ضربهم رجال البوليس يمينا وشمالا بالشوم والعصى الغليظة .

وفى عدد آخر :

« قبض رجال البوليس المجرمون على الطالب الشجاع الشاب كوريولان دراجانيسكو ، بينما كان يقود أمس مساء مظاهرة من الشبيبة الجامعية فى الشارع الكبير . وقد سجن فى زنزانة لم يتح له منها الاتصال بأسرته . ويقال إنه جرح جرحا خطيراً ، وأنه عذب فى السجن . ومن أجل هذا ، فإن القاضى الحقير وممرة القضاء ، الذى جعلنا من واجبنا وبدافع التحفظ عدم ذكر اسمه أبداً من الآن فصاعدا فى أعمدة صحيفتنا ، لا يسمح لأحد بأن يرى الضحية الشابة لنظام الإرهاب القائم » .

وفي عدد آخر أيضا :

« لم يعد هناك سوى مجانين في الحكومة . إن الأشقياء يديرون الحكومة على هواهم .

بينما كانت الشبيبة متجمعة مساء أمس أمام تمثال ميشيل الشجاع تستمع بقلوب مبتهجة ونفوس نشوانة للخطاب الوطني الحماسي الذي كان يلقيه الطالب الشاب الفذ كوريولان دراجانيسكو حول حق الشعب في الاحتجاج ضد حكومة من قطاع الطرق ، أنقض رجال البوليس على أولئك الذين سيكونون في الغد موضع فخار الأمة ، وانهالوا عليهم ضربا بالأيدي والأرجل والعصى الغليظة في جميع الاتجاهات وشقوا لهم طريقا حتى تمثال البطل ، حيث كان الخطيب يتكلم على يمينه.

كان منظراً إرهابيا لا يمكن وصفه .

عند ما لمح الشاب كوريولان رجال البوليس يريدون الإمساك به من عنقه ، تسلق التمثال مسرعا . ولم تمض ثانيه واحـــدة حتى كان واقفا فوق عجز الجواد يصيح : كونوا كلكم شهوداً على هذا العار الجديد لأشد الأنظمة عاراً .

ولكن قطاع الطرق جروه من ساقيه . وعندئذ احتضن الشاب الشجاع جسد ميشيل الشجاع من الخلف ، وضمه بقوة. فما كان من قطاع الطرق إلا أن جروه من ساقيه بقوة إلى حد ربما ترتب عليه أن يكسر كوريولان الجسد البرونزي للبطل ،

أو أن أولئك الوحوش يبترون ساقى كوريولان ، لو لا أنه كف عن المقاومة ، ولولا أنه أرخى ذراعيه .

لا . . . لا . . . حقا ، أن هذه الحكومة قد فقدت عقلها » .

هكذا كان كوريولان دراجانيسكو . وبالرغم من نشاطه الخارق كخطيب سياسى ، فإنه لم يهمل دراسته . لقد واظب على حضور محاضرات الجامعة بانتظام خلال سبع أو ثمانى سنوات . وفجأة ، استطاع والده وأقاربه وأصدقاؤه الكثيرون أن يقرأوا ، برد فعل لا يخلو من ابتهاج ، النشرة التالية فى « صديق الشعب » فى باب آخر الأخبار :

« علمنا بسرور كبير أن الشاب كوريولان دراجانيسكو الطالب الفذ بجامعة المدينة ، قد نجح فى تأييد رسالته فى ليسانس الحقوق عن (النظام العام فى الدولة الحديثة) . وقد عالج هذا الموضوع بموهبة خارقة . وهنأ أعضاء لجنة الامتحان الشاب الفذ تهنئة حارة . ونحن نرى من واجبنا أن نوجه إليه بدورنا تهانئنا متمنين له المستقبل اللامع الذى يستحقه » .

ليسانس حقوق ! شاب فذ ! خطيب لا يقاوم ! شخصية قوية ! أفكار واسعة ! . . . قلت لنفسى : بالتأكيد ، هذا مواطن له مستقبل كبير . يالله من مستقبل لامع ! ... وكنت دائم الاهتمام بهذا الشاب . كان لفوزاته كطالب ضجيج ، إلى

حد أنه كان لابد لى كل يوم أن أسمع اسمه الجميل « كورنيولان دراجانيسكو » ، أو أراه مطبوعا ، أو أنطق به .

لكن حدث ما قد يبدو أمرا متعمدا . . . بعد أن قرأت الإشارة إلى نجاحه فى امتحان الليسانس ، أخذت شيئاً فشيئا فى نسيان الإسم الذى كان إلى عهد قريب شهير جداً . . . وكان هذا أمراً طبيعيا جدا . لقد نسيته لأنى لم أعد ألتقى به فى كل خطوة أخطوها .

ومنذ زمن بعيد ، انمحى ذلك الإسم من ذاكرتى . وكنا نجتاز فترة مضطربة . مسائل سياسية حارة . . . الأزمة الاقتصاديه والزراعية والمالية . . . اعتداءات على الدستور تتفاوت فى خطورتها . . . كل هذا أغضب الرأى العام غضبا شديدا . وكان الطلبة فى حالة هياج شديد ، وقد أزمعوا القيام بمظاهرة .

ماذا حدث اليوم عند تمثال ميشيل الشجاع ؟ فكر قليلا . . . لقد تناولت « صديق الشعب » ، وقرأت :

« لقد تجاوزوا أقصى حدود العار . . . انهضوا أيها المواطنون ، فلقد أصيبت الحكومة بداء الكلب .

إن العمل الذى اقترفه اليوم هؤلاء اللصوص يتجاوز كل ما كان يمكن للإنسان أن يتصور حدوثه من قوم كهؤلاء ، لادين لهم ولا قانون .

لقد عذب الطلبة وسحقوا وذبحوا .

لقد صدرت الأوامر إلى محترفي القتل في هذا النظام بأن يطلقوا الرصاص، وفوهات أسلحتهم تلمس صدور ضحاياهم.. ولقد أطلقوه.

إن هذا بشع ومشين في نفس الوقت .

إن دماء الشبيبة الرومانية السمحة قد سالت على الرخام الأبيض الذي يقوم عليه تمثال أعظم الأبطال الرومانيين .

على هؤلاء اللصوص أن لا يأملوا في الإفلات من ساعة العقاب.

أن قتلة الشبيبة معروفون ، وسوف يدفعون ثمن جرائمهم ، حتى لو اختفوا في جحور الفيران . . .

نحن نعد بذلك ، وبصفة خاصة ، مفتش البوليس الشائن ... هذا السافل الوضيع . . . هذا الرقيع الفاجر . . . هذا الضابط المتوحش . . . هذا الجلاد آكل لحوم البشر ، الذي يدعى بهذا الإسم المنفر : كوريولان دراج .....

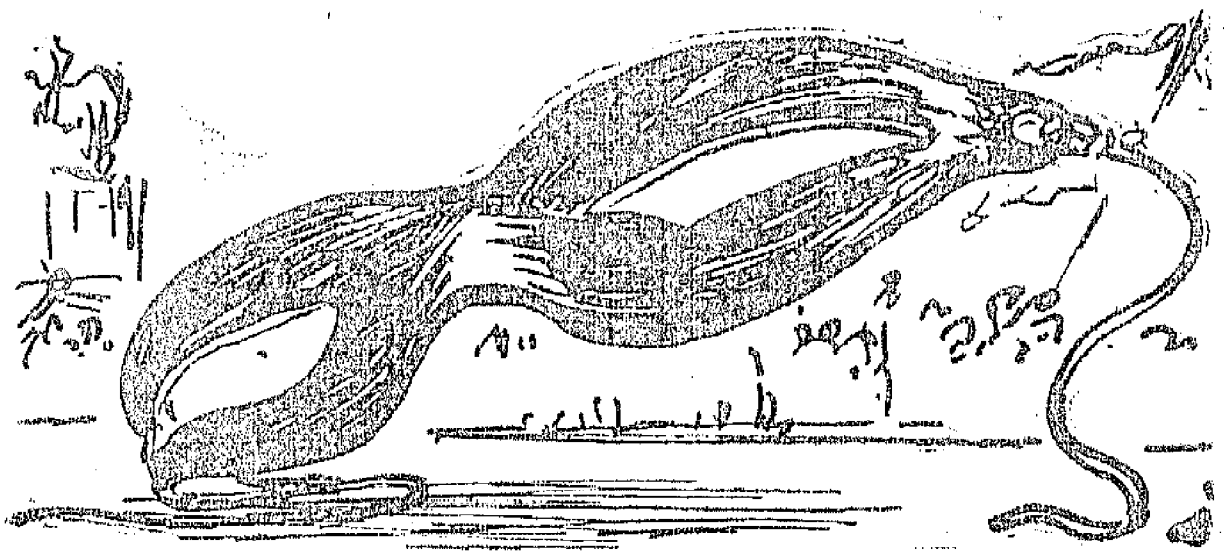

ـــ يون . . . إذن أنت ترى أنك لست مدينا لى بعشرة أيام تقلب فيها الأرض مرة ثانية . . . هذه العشرة أيام التى قيدتها على حسابك . .. أليس كذلك ، هيه ؟

ـــ ماذا ؟ أنى أعرف جيدا إننى سبق أن قمت بهذه العشرة أيام .

ـــ إننى هنا منذ عامين ، وأنت أول من يعترض مطالبا .

ـــ إن الحياة ياسيدنا صعبة مع أسرة كبيرة العدد .

ـــ وبالنسبة إلى إذن ، لعلها ليست صعبة ؟ تبين ... أربعة أبناء هنا ، وابنتان فى بنسيون فى المدينة ..

ـــ يا للهول ! لديك أولاد فى المدينة .

ـــ ولدان فى باريس .

ـــ يا لبؤسنا !

ـــ أنت ترى يايون أننى ، أنا الآخر ، أنوء بأحمال ثقال .

ـــ نعم ياسيدنا .. لكنى أعتقد أنه يجب على كل إنسان أن يقوم بتربية أولاده .

ـــ لكن قل إذن .. هل ألقيت على عاتقك مهمة تربيتهم ؟

ـــ لا ياسيدنا .. ولكن يجب أن تكون هناك عدالة فيما يتعلق بتقليب الأرض مرة ثانية .

ـــ سأحقق لك العدالة .. انتظر قليلا

واقترب من الفلاح ، وانهال عليه يضربه بقبضتى يديه فوق رأسه .

وخرج الفلاح مخبولا ، ومضى إلى دار العمودية يشكو .

وبعد ساعة ، بدا العمدة أمام باب النبيل الإقطاعى ، وقبعته المصنوعة من الفرو فى يده .

ـــ ماذا فعل إذن هذا الملعون يون ياسيدنا ؟

ـــ ليس هذا من شأنك أيها العمدة . أولى لك أن تهتم بتفادى أى نقص فى الرجال فى مزارعى غدا . . . ولا تنس دينك .. هيه ، وإلا ..

ـــ مفهوم ياسيدنا .. طوع أمرك دائما .

وفى الغد ، ذهب يون ليقدم شكوى لدى وكيل المديرية . وأعاد له وكيل المديرية الشكوى بعد أن كتب عليها تعليقا يوصى العمدة بالاهتمام بها .

وعند ما رأى العمدة ختم وكالة المديرية ، قال للفلاح :

ـــ لماذا تعطيها لى أنا ؟ أرها للنبيل الإقطاعى

ـــ كى يضربنى مرة ثانية ؟ اذهب أنت بها إليه .

ـــ لن أذهب إليه . سوف يطالبني مرة ثانية بالنقود التي أنا مدين إليه بها .

وذهب الفلاح إلى المدينة ، وسلم مدير المديرية خطابا شكا فيه من أن المالك ألحق به إضرارا ، وضربه .

كان المدير لا يعرف ماذا يصنع ، لأن انقساما كان على وشك الحدوث في الفرع المحلي للحزب الحكومي . وإذا فقدت الحكومة عددا من أنصارها ، فسوف يفقد المدير وظيفته ، و .. الحياة صعبة مع أسرة كبيرة العدد .

وعلى هذا فقد أعاد شكوى الفلاح إلى وكيل المديرية ، وأوصاه بالاهتمام بها . ولما كان وكيل المديرية لديه مسائل خاصة يريد تسويتها مع المالك ، فقد طلب إلى الفلاح أن يسبقه إلى هناك ، على أن يلحقه هو في الطريق .

ولحقه فعلا ، وتخطاه بعد قليل .

وعند ماوصل إلى القرية ، نزل دون شك لدى المالك .

وأكل ، وشرب حتى التخمة ، ونام بعد الغذاء ساعة أو ساعتين ، وذهب إلى دار العمودية متأبطا ذراع المالك الكبير ، واستدعى الشاكي لتحقيق شكواه .

وما أن رأى المالك الفلاح حتى اعتراه غضب جنوني ، وأخذ يصيح :

ـــ أيها الهمجي .. يا حافي القدمين .. أيها الصعلوك

القدر .. كيف نجرؤ على امتهان قدري في عيون جميع الناس ؟

واقترب منه ببطء ، وبدأ يضربه من جديد بقبضتي يديه ضربات قوية فوق رأسه .

وتدخل وكيل المديرية بصوت رقيق :

ـــ مسيو آرجير .. كفى يامسيو آرجير .

ولكن المالك كان في حالة شديدة من الغضب لا تسمح له بالإصغاء إليه . وكان يضرب دائما . وعندما كلت يداه ، خرج وهو يصيح :

ـــ هذا الضرب سوف يزيل من نفسك الميل إلى التحقيقات .

وعندما ثاب الفلاح إلى رشده ، ولم يثب إلى رشده إلا بعد عناء ، استجوبه وكيل المديرية :

ـــ إذن .. قل لنا الآن كيف جرت الأمور .

ـــ أو لم تشاهد إذن ؟

ـــ دع هذه المسألة جانبا .. أنني أسألك عن المسألة الأخرى .

ـــ المسألة الأخرى مشابهة لهذه المسألة ، أو هي نفس هذه المسألة .. مسألة جديدة ، وسوف ألازم الفراش طوال الصيف .. وسوف أموت جوعا في الشتاء .. إنني أفضل أن أشتغل له عشرة أيام .. وأكل أمري إلى الله الذي ...

ـــ حسنا .. لقد أصبحت عاقلا .. نعم ، أيها الرجل

الشجاع .. عند ما يعيش الفلاحون والملاك فى سلام يضمون جميعا . إن الوفاق ، أى المحبة بين الفلاحين والملاك نعمة من نعم الله لهؤلاء وأولئك .. لأنه ، هل أنت فاهم .. رجال طيبون .. السلام باسط ظلاله .. أنت فاهم .. يحدث أنه ربما أن .. أنت فاهم ماذا أريد قوله ؟ .. أن .. أخيرا ، يسير كل شىء على ما يرام ، ونعيش جميعا فى سلام .

واستمر وكيل المديرية يتكلم هكذا بنفس النغمة لمدة ساعة ، وهو يسدى إليه النصائح ، دون أن يغفل عن التحدث عن اهتمام الحكومة بالفلاحين ، وعن القوانين التى سنتها الحكومة لحماية الفلاحين . الخ ، الخ ..

ثم قرر ، استجابة لقرار مدير المديرية ، أن الطرفين قد تصالحا .

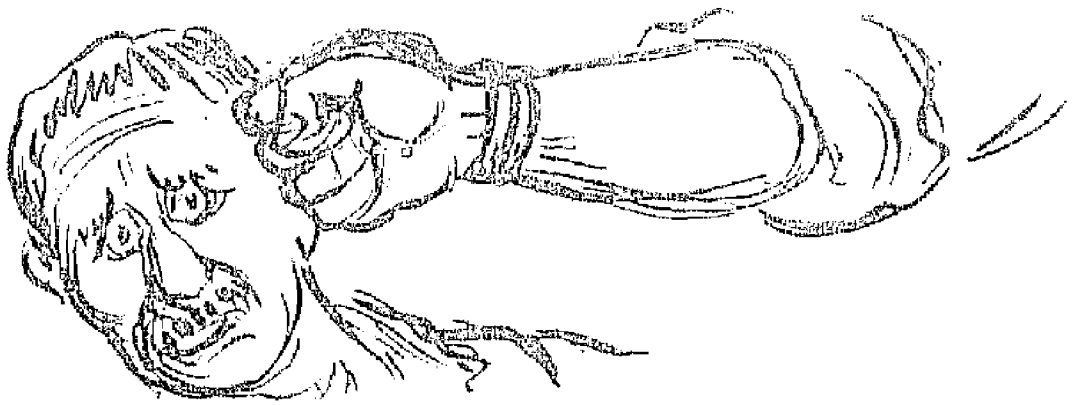

النغم الأساسي والنغمات الفرعية

النغم الأساسي

اشتعل حوالى الساعة السادسة من مساء أمس حريق فى منزل يقع فى مواجهة ثكنة كوزا فى دبالول ـ سبيرى . وقد أمكن إطفاء النار فى بضع دقائق رغم الرياح الشديدة بفضل الجهود التى بذلها رجال المطافى، والجنود ، والخسائر طفيفة .

« يونيفرسول »

النغمات الفرعية

— ١ —

منذ حوالى أربع سنوات والرجعية تقبض بين مخالبها على بلجيكا الشرق (١) ، التى نظرا لتخلفها فى السير نحو التقدم ، مع أن تقاليدها وتاريخها اتسمت بتقدم له طابع خاص عينه إلى حد ما ـ وأوقفته فى نفس الوقت ـ الأحداث الاقتصادية الأخيرة التى جاوز فيها رياء الرجعية جميع الحدود ، وبلغ حداً يقضى على كل أمل فى التقويم ، الأمل الذى لا أساس له طالما أن الرجعية وعصابتها المشئومة اللتين لا تخشيان قانونا أو إلها ، كما لا تخشيان

---

(١) هكذا كانت تسمى الصحافة رومانيا فى ذلك الوقت .

حكما للتاريخ منصفا، ولكنه قاس، الرجعية وعصابتها المشئومة اللتين دفعتهما وقاحتهما النوذجية الشائنة لأن تعلنا بلباقة ومداهنة مفرطتين في الوقاحة، في جلسة تاريخية من جلسات البرلمان، الذي كان له من الذوق أو بالأحرى السفاهة ما جعله يستسلم ويعترف بخطاياه نادما كما يفعل المماليك وينتقل إلى جدول الأعمال، جدول الأعمال الذي يجب على تاريخ أي بلد لديه إلى حد ما بقية باقية من احترام نفسه أن يسجله مصحوبا بالخزي والاشمئزاز، لأنه عندما تعم «أفعل ما أريد» في بلد ما كمبدأ للسياسة العليا، وعندما تصبح مصلحة الدولة العليا مجرد أهواء لبعض الداعرين الرجعيين، فلا نستطيع أن نتوقع إلا سيلا من المخازي من مختلف الأنواع، وسيول أخرى، ولكن لم نكن نظن، كي نصل من هذا إلى ماهو جوهري، لم نكن نظن، ونؤكد هذا علنا، أن الرجعية المركزة وصاحبة السلطان القوي يصل بها الأمر إلى حد إشعال حريق كذلك الطريق الذي اشتعل في ديالوك - سبيري في مواجهة تسكنة كوزا، والذي يجب أن يكون درسا للوطنيين ولطخة لا تمحى عالقة بهذا النظام المظلم الذي يدعي الطهارة . . نظام الحرائق، لأنه لو لم يطفىء رجال المطافىء التي أنشأها الجنرال الجليل المسن فلوريسكو النار، فمن يعلم كم من الزمن كانت ستظل مشتعلة !

«جريدة من جرائد المعارضة دون برنامج،
وذات اتجاه حر - محافظ»

أمس مساء ، وفى نفس الوقت الذى كنا نطبع فيه الطبعة الخامسة من جريدتنا ، اشتعل حريق فى ديالول - سبيرى فى مواجهة ثكنة وزا .

ولقد أثار الحريق فزعا عاما بين المواطنين والمواطنات بسبب الرياح العنيفة التى كانت تهب من الغرب نحو الشرق .

وقد وصل إلى المكان المشار إليه رجال المطافى ، وبعض الصفه ضباط والضباط - كان الجنرال غائبا - حيث تظلبوا بعد مجهودات عنيفة على النار التى كانت قد امتدت إلى الأجزاء الخشبية من العمارة .

وبهذه المناسبة نسكرر مرة أخرى التصريحات التى سبق أن نشرناها مراراً فى جريدتنا عن مؤسسة المطافى .

لقد قلنا ، ونقول أيضا ، وهو واجب علينا أن نعيد القول دائما على مسامع خصومنا فى الحكومة :

لقد أثبتت التجربة لنا ، بما لا يدع مجالا للشك أنه :

طالما لا يوجد لدينا « رجال مطافى » - مواطنون »

طالما لا يوجد لدينا « مواطنون - رجال مطافى » »

فلن نصل إلى رفع هذه المؤسسة إلى المستوى الذى بلغته فى الغرب .

فلنكن وطنيين إلى الحد الذى يجعلنا نطرح جانبا الروح الحزبى ، ولنتساءل :

إلى متى سوف نستخدم وسائل احتيالية ؟

هل أنت رجل مطافىء ؟ يجب أن تكون فى نفس الوقت مواطنـــا .

هل أنت مواطن ؟ يجب أن تكون فى نفس الوقت رجل مطافىء أيضا . هذا وحده هو الشيء الفعال .

الحافز ،

المنجز ،

العادل .

لقد أثبتت تجربة ديالول ـ سبيرى إلى أقصى حد ، أن فرز المواطنين الذين ليست لديهم خبرة ، كثيراً ما يكون سببا فى امتداد الحرائق بشكل خارق للعادة .

فلنحاول إذن :

أن يكون لدينا « رجال مطافىء ـ مواطنون »

أن يكون لدينا « مواطنون ـ رجال مطافىء »

ولن يستطيع إنسان أن يكون رجل مطافىء صالح إلا بشرط أن يكون مواطنا فى نفس الوقت .

والعكس بالعكس .

ومما لا شك فيه أن ما نؤكده بالنسبة إلى المواطنين فى المدن يسرى أيضا على القرويين فى القرى :

« رجال مطافىء ـ قرويون »

« قرويون - رجال مطافي »

ولكن خصومنا يستطيعون أن يسألونا :

من هو الذي سيقود رجال المطافي - المواطنين ورجال المطافي - القرويين ؟

نحن نجيب على هذا :

المهندسون .

مهندسون مختصون أذكياء بصيرون مستقلون مجربون .

وبهذه الوسيلة وحدها تستطيع مؤسسة المطـــافي ، وقد أصبحت قوية ، أن تحقق نتائج باهرة .

« جريدة من جرائد المعارضة
لها برامج كثيرة مسطرة على الورد »

— ٣ — (١)

قطعا إن الأستاذ الربيع ليس مبتهجا هذه السنة رياح ومطر ، ومطر ورياح . إن بنات الذوات لدينا يضعن أوقاتهن في النظر إلى البارومتر الذي فقد إحساسه كما فقدته الطبيعة أمنا المجنون ، والذي يهبط ، ويهبط دائما ، حتى ليكاد الإنسان يقول إنها أسهم بنما . ويصر الإله « اللذة » والجنيـــة « بامبوش » على إغلاق

(١) هذه القطعة كلها مكتوبة في النص الأصلي بالفرنسية ، طبقا لتقاليد الجرائد « الشيك » في ذلك العصر .

معبديهما ، على الرغم من تمنيات عبادهما المتحمسين . ومن ثم ، فلا يخور المذنبين اللذين كانا يحملان قديما بالزهور . إنه لمن الجنون أن لا يلهو الإنسان فى النهاية اللعينة لهذا القرن الذى لا يريد أن يضع حداً لفاجعاته المزعجة .

أمس ، شب حريق فى ديالول - سميرى . والتهيج خير من السأم ، فى حالة عدم وجود ملاهى . وكان للنظرة حقا تأثير فاتن .. أناس كثيرون فى الحريق . ولنذكر عابرين ، مدام شوز السمراء ، وكأنها تهبط من لوحة للرسام موريللو مرتدية رويبه دى شامبر ، ورائعة فى قميص نومها الشفاف . ومدام ماشان .. لوحة للرسام روبنس .. لا تقل فى أناقتها عن السابقة ، وقد تخضب وجهها بحمرة شديدة من فرط الانزعاج . ومدام بيجوديانو ، فى ميعة صباها كحلم رائع من أحلام الرسام فاتو ، فاتنة بشعرها الأصفر الذهبى الذى يتجعد تجعدا طبيعيا دون أى افتعال ، وردة حمراء على وشاك التفتح فى أشعة الخوف ، منسجمة انسجاما موفقا مع درجة احمرار اللهيب الذى يظلله حجاب من الدخان تظليلا خفيفا .

ولنمر عليهن وعلى غيرهن ممن تفقهن جمالا ، واللاتى لا أتذكر أسماءهن . ثم خلية من الفتيات الصغيرات النضرات كزهور البنفسج التى اقتطفت منذ لحظة قصيرة من شاطىء جدول رائق ، بعضها أكثر فتنة من الأخرى ، والتى يبدو أنها تجد تسلية كبيرة

في الطريق الذي يذكر طبيبه بتقصص موشان الرهيبة ، ورجال المطافي ، الشجعان الذين لا يتصورون دون حركاتهم العنيفة .

ويعد الطريق ، تجمع عدد من نخبة المشاهدين لدى الشواء القائم على ناصية الشارع .

« جريدة شيلك »

— ٤ —

يثير كثير من صحف المعارضة ضجة حول الحريق الذي اشتعل في ديالول ـ سبيري في مواجهة ثكنة كوزا . وهذه النغمة يرددون من جديد أفكارهم الشهيرة ملقين على الرجعية (هكذا) مسئولية هذا الحريق . وإن التصديق الذي يقابل به الرأى العام ما تؤكده هذه الشائعات التي لم تعد تكترث أدنى اكتراث باحترام الحقيقة ، لترغمنا على نشر التصحيح الآتي .

نمى إلى علمنا من مصدر رسمي أنه لم يكن هناك أى حريق أمس في ديالول ـ سبيري . والحريق الرهيب محض اختراع من أوهام خصومنا التي لا تنضب ، وترسانتهم الفنية بالافتراءات .

« جريدة للخدمة العامة »

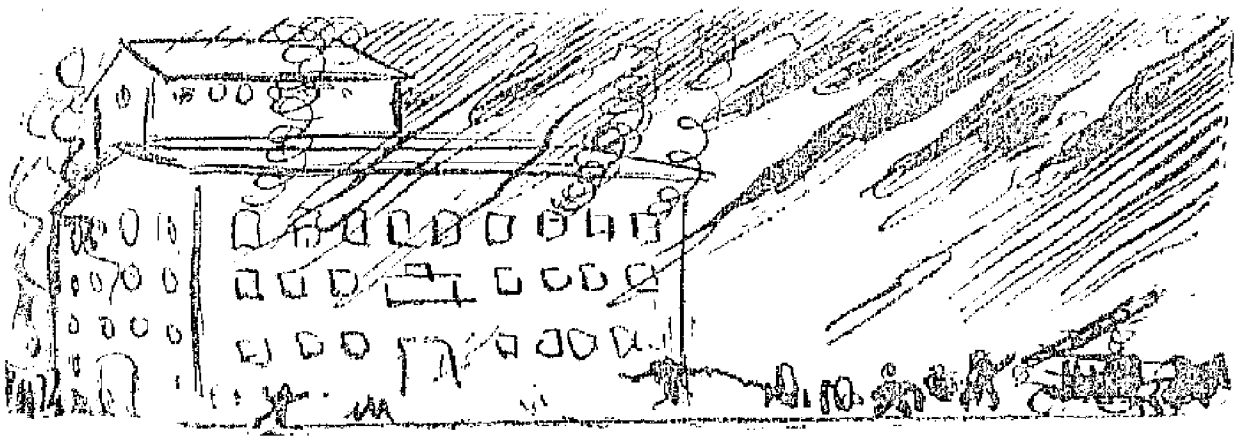

ألكسندر ساهيا

مات السكندرو ساهيا فى ربيع عمره .

مات فى السادسة والعشرين .

مات فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٧ .

وعلى الرغم من ذلك ، فلقد كانت تلك الحياة القصيرة حافلة بالنضال والفكر والانتاج الأدبى .

حقا ، لم يكن إنتاجه الأدبى ضخما ، وما كان من المستطاع أن يكون ضخما ، وقد بترت حياته فى هذه السن المبكرة . ولكنه كان إنتاجا فياضا بالصدق زاخرا بالوعى نابضا بالحياة .

ولذلك احتل هذا الإنتاج الواقعى مكانه الجدير به بين التراث التقدمى الثمين للأدب الرومانى .

* * *

ولد ساهيا فى إقليم مانا ستيريا من أبوين فلاحين رقيق الحال . ولذلك لم يكن ميسورا عليه أن يتغلب على المصاعب المالية التى تعترض طريق تعليمه . ولقد صارع هذه المصاعب صراعا عنيفا ، مكنه من الحصول على قسط من التعليم المدرسى .

التحق فى أول الأمر بالليسيه الحربية فى كرايوفا ، ومالبث أن اضطر لمغادرتها بعد بضعة سنين ، ليلتحق بمعهد سان سافا الوطنى فى بوخارست .

وكانت هذه الحياة الشاقة المضنية ، والمتاعب التي واجهها مبكرا ، كفيلة بتنمية عقله وشحذ مواهبه وتعميق تأملاته . ومن هنا ، أحس برغبة حرّى في التعبير عما يراه ، ويسمعه ، ويتأمله ، ويختلج في نفسه . ووجد في القلم أداة لتسجيل هذا التعبير ، الذي بدت فيه منذ المحاولات الأولى ، بوادر نظرة عملية واعية ، ما لبثت حتى توفر لها نضوج سريع .

وما كاد ساهيا ينهي دراسته الثانوية ، حتى اشترك في تحرير المجلات التقدمية التي كانت تصدر إذ ذاك : « العصر الجديد » ، و « الكلمة الحرة » ، و « الحقيقة الأدبية » ، والتي كانت تعاني من وطأة النظام الإرهابي القائم في ذلك الوقت .. النظام الفاشي الذي كان يخنق حرية الصحافة خنقا ، ويجعلها أثراً بعد عين .

بعد ذلك أصدر ساهيا بنفسه مجلة « القصصان الزرقاء » ، وجريدة « العهد الجديد » . وبما أن الرقابة الصحفية كانت قد أقامت من نفسها إذ ذاك حاجزاً يعترض انتشار الأفكار التقدمية التي كان يصارع من أجلها ساهيا ، أصبح من المستحيل على هاتين الصحيفتين أن تواصلا أداء رسالتهما ، ولذلك لم تعمرا طويلا .

وفي سنة ١٩٣٤ ، قام ساهيا برحلة إلى الاتحاد السوفيتي وعاد من زيارته ليضع في سنه ١٩٣٥ كتابه « الاتحاد السوفيتي

... اليوم ». ولقد امتلأت صفحات ذلك الكتاب بتصوير صادق أمين لما شاهده الكاتب الشاب هناك ، وما رأى حقا عليه أن يطالع مواطنيه به . لقد عاش سامها تحت وطأة الفاشية معذبا مضطهدا ، مثله فى ذلك كمثل الملايين من مواطنيه . وظل يكافح بقلمه كفاحا إيجابيا كى يقضى على الحكم الغاشم القائم ، ويقيم مكانه حكما عادلا لصالح الملايين . ورسم فى مقالاته وكتبه وقصصه معالم هذا العالم الجديد الذى يتطلع إليه ، حتى إذا أتيحت له الفرصة لمشاهدة الاتحاد السوفيتى ، والتجول فى كثير من أنحائه ، ودراسة ما يجرى هناك ، أبصر بأحلامه حقيقة واقعة . فأراد أن يقول هذا لشعبه . وقاله غير هياب ولا وجل ، لأنه كان يرى أن مهمة الكاتب المناضل أن يقول الحقيقة رغم جميع التضحيات التى قد تترتب على قولها . وصدر الكتاب ، فإذا بالأيدى تتخاطفه ، مما أزعج الحكومة الفاشية ، والاستعمار الذى يبقيها فى الحكم جاثمة على صدور الشعب . ومن ثم هرولت السلطات مسارعة تجمع الحقيقة من المكاتب لئلا يصل بصيص من نورها الوضاء إلى الجماهير ، التى أراد لها الاستعمار وصنائعه أن تعيش فى متاهات الباطل ، ما استطاعوا أن يبقوها صريعة هذا الباطل .. ولكن الاستعماريين وصنائعهم واهمون ، فلم تمض بضعة سنين بعد ذلك حتى سطع نور الحقيقة قويا باهرا وهاجا ، فخطف أبصار المتآمرين جميعا ، وحرر مئات

الملايين من المغلوبين على أمرهم تحريراً حقيقيا ، وأنقذهم إنقاذاً نهائيا من براثن الجشع الاستعمارى .

* * *

إن انتاج الكسندرو ساهيا الأدبى كان محدود الكم كما سبق أن قلنا ، ولكن هذا الإنتاج القليل تمتع بإيمان لا يتزعزع فى انتصار الحرية آخر الأمر ، وفى القضاء على استعباد الإنسان للإنسان فى نهاية المطاف . ومن هنا قيمته الموضوعية الإيجابية الكبرى . ليكاد كل سطر فى قصصه القصيرة أو مقالاته أو أبحاثه ينبض بهذا الإيمان وتلك الثقة . ولم يكن إيمانا عاطفيا وثقة حماسية ليس إلا ، ولكنهما كانا ممتلئين بنصيب وافر من الوعى السليم والنظرة العلمية الصائبة . لم يكن إنتاجه صرخة من الصرخات الألمية الداوية فقط التى تدخل فى باب الاثارة ليس إلا ، والتى ربما فقدت أثرها بسرعة ، فعواطف الجماهير الجياشة تتجاوب مع أمثال هذه الصرخات ، ولكنها سرعان ما تلهث خائرة نتيجة للاندفاعات العنيفة التلقائية ، وأمام الحيرة التى تكتنفها ، وهى تنقب فى غير جدوى عن الحل العملى الإيجابى للقضاء على الظلم الجاثم على صدورها . ولكنه كان إنتاجا ، تمتع إلى جانب ذلك بالتربية والارشاد والمساهمة فى تمهيد طريق الخلاص للمغلوبين على أمرهم ، وهم يتخبطون فى الظلمات التى أحاطهم بها الاستعمار وصنائعه من كل جانب .

نعم .. فى إنتاج ساهيا تلمس معالم الطريق . إن قلمه ليحطم جانبا من السور الاجرامى الذى أقامه أعداء الانسانية حول ضحاياهم . وفى قصصه ، تحس بهذا القلم ، وهو يسقط جانبا من حجارة السور البشع . وتكاد تسمع تساقط الحجارة لتفتح طاقة للإنسانية تخرج بها من الظلمات إلى النور .

فى قصته « مطر يونيو » يروى ساهيا مأساة فلاح أنجب تسعة أولاد يجب عليه أن يطعمهم طعاما أى طعام ، حتى يبقيهم على قيد الحياة . وكذلك يجب عليه أن يستر أجسادهم بأية اطمار بالية حتى يقيهم قسوة البرد والامطار المنهمرة . وأنه ليشتغل فى الحقل ، وإلى جانبه زوجته المرهقة تشتغل هى الأخرى .. تشتغل فى شهر الحمل التاسع ، وتضع توأمين فى الفضاء ، ثم تنهض متثاقلة المخطى شديدة الإعياء لتحاول رفع المنجل من جديد ، وتضرب به الأرض إلى جانب زوجها ، ولما يمض على وضعها دقائق .. ياللاشقاء ! هكذا كانت تجرى حياة ملايين الفلاحين فى رومانيا تحت حكم الفاشية .. ومع ذلك كنت أسمع من بعض السائحين المصريين الذين يزورون رومانيا إذ ذاك ، أن بوخارست وغيرها من المدن الأخرى زاخرة بأجمل نساء العالم . يالنظرتهم القاصرة ! وهى لاترى من رومانيا إلا ذلك الجانب . ولعلها لم تره ، بل هى أحلام المراهقة التى قد تصاحب بعض الرجال حتى عتبات القبور . أما ساهيا ، فقد

رأى شعبه على حقيقته ، وصوره على حقيقته . كان ساهيا يتكلم باسم الملايين . ولذلك عاش انتاجه حتى اليوم ، مقروءاً مقدراً . أما ترهات العابثين والانحلاليين ، فقد تبددت هباء .

في « بطالة دون تفريق عنصري » ، يرسم ساهيا صادقا عشرات الآلاف من العاطلين الذين كانوا موجودين في رومانيا وغير رومانيا . وكيف تضطرهم ظروف الحياة القاسية إلى أن يقوموا بأعمال شريرة لاتتفق مع مواهبهم ، بل لاصلة لها ولا علاقة لها بالانتاج. إن الاستعمار وهو يمتص دماء مئات الملايين في الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة والتابعة ، يميت جزءاً كبيراً من مئات الملايين هذه جوعا وهي تبحث عن عمل ، حتى إذا أغلق عليها الطريق من كل جانب ، اضطرت إلى قبول أي عمل يعرض عليها . وفي هذه الأعمال غالبا ، الزراية كل الزراية بالإنسان وكرامته . إن أبطال « بطالة دون تفريق عنصري » يقومون بأدوار بهلوانات الترويج بضاعة بائرة . ولأنهم ليستدرجون الزبائن بحركات مبتذلة ، كي يتم البيع والشراء ، وكي يعيشوا حياة في قانون العرض والطلب ، الذي شوهه الاستعمار فيما شوه ، تشويها كبيراً .

لقد فهم ساهيا الفن على حقيقته ، وفهم رسالته على حقيقتها إن إنتاجه « واقعي مناضل » . ولقد ظل مخلصا كل الإخلاص

هذا الفهم ، في أشد العهود إرهابا وتنكيلا . ولم يحدث في أية لحظة من اللحظات أن نشأ تناقض ولو طفيف بين قلم الكاتب وهذا الفهم . ولذلك فإن إنتاجه ، على قلته ، مرتبط ارتباطا وثيقا مع آمال الجماهير التي تحدث عنها ورسم حياتها .

ولقد ساهم هذا القلم الصادق في إقالة هذه الجماهير من حيرتها ويأسها ، وهي تتخبط وتعاني وطأة الاستبداد والإرهاب . ولقد حفزها لمواصلة النضال ، وملأها أملا وثقة في مستقبل مشرق قريب .

ولم يكتف عليها ساهيا ، وهو يشجعها ويحدثها عن فضارة الأيام التي ستطوي الأيام اللعينة التي تعانيها ، وتطوي معها مظالمها وآلامها ، وظالميها والمستبدين بها .. .. فلم يمض غير وقت قصير حتى صرعت الشعوب الفاشية ، وتحرر الشعب الروماني ، ومضى يشيد دعائم مستقبله بيديه . ولم ينس هذا الشعب أن يعترف بجميل كتابه الذين شرعوا أقلامهم للدفاع عنه في محنته ، ومن بينهم الكسندرو ساهيا .

إن السكندرو ساهيا اليوم عضو في الأكاديمية .. عضو بعد موته المبكر . إن الشعب الروماني يكرم كاتبه الذي لم يعش ليشاهد بعينيه تحرر مواطنيه ، وهو الذي كان من أشد الناس ثقة في مقدم هذا التحرير ، وفي مقدمه السريع . إن أعماله الأدبية لتطبع منها اليوم مئات الألوف من النسخ ، وإنها لتلقى من الجماهير الرومانية الواسعة تقديراً كبيراً .

فصل تسعة عشر

كانت شمس يونيو تصوب أشعتها المحرقة على السهل . وقد جف العشب تماما . وبدت عصارة النباتات في الحقول وكأنها تصلبت ، والقمح وكأنه لم يعد موجودا ، والسنابل وكأنها تصفحت .

وكانت تحصل من نبات الترنجان ونبيسات عاشق الشجر تتناثر فوق المسالك الضيقة المتصلبة .

لقد تساقطت أمطار غزيرة قصيرة حوالى منتصف مايو . ومن يومها لم تسقط نقطة ماء واحدة .

واتخذ سهل باراجان منظراً حزينا . وعلى مسافة غير بعيدة من هذا السهل ، انساب مجرى يالوميتسا الهادئ ، بين شاطئيه الجيريين متجها نحو الدانوب .

ومن وقت لآخر ، ينتشر في الهواء الخانق صهيل مكتوم لجواد . وكانت السماء صافية زرقاء . وفي الأفق ، من ناحية المستنقعات ، وعلى حدود سهل باراجان ، كانت تتكون سحابة وحيدة تتقدم نحو الحاصدين .

وتوقف بيتري ماجاؤن عن العمل . وانتصب مطقطقاً عظامه . وهبت نسمة عليلة من الشرق فنفخت وراء ظهره قميصه المبلل بالعرق . كان الطلاء الأخضر الذي طليت به يد منجله

قد ترك أثره على راحة يده اليمنى. وغرز آلته فى إحدى الحزم ، وانتزع بيديه حفنة من النباتات المتعددة . وذلك راحتيه بالنباتات تدليكا قويا ، ولكن الطلاء الأخضر كان قد انغرز فى ثنايا راحتيه ، ولذلك لم يستطع أن يمحوه . ومسح العرق من جبهته على ذراعه ، وانزلق تحت ذقنه كى يستقبل فرق ظهر قميصه المصنوع من الكتان .

كان بيتى يا جاكون طويلا نحيلا ، له عنق طويل كعنق النعامة . وقد ربط وسطه بحبل جعل يتدلى من الجانبين . وكان يشتغل حافى القدمين ، وقد شمر رجلى بنطلونه حتى الركبتين كاشفا بذلك عن أثر جرح كبير فى ساقه اليمنى التى مست شظية قنبلة أثناء الحرب ، مما جعلها تشبه قطعة من الخشب نخرتها الديدان .

وإلى جانبه تشتغل آنا ، وتكاد بطنها المستديرة تمس ذقنها . وكانت تجد صعوبة فى التحرك ، ومشيتها تشبه مشية أوزة امتلأت بالأكل إلى درجة غير عادية . كانت تسير متباعدة الساقين ، وتصدر بين الحين والآخر تأوهات واهنة .

وكانت هى الأخرى بدون حذاء ، ولها قدمان كبيرتان متشققتان . وكانت تقبض يدها اليسرى بحذر على حفنة من القمح ، بينما تقطع بيدها اليمنى متمهلة سيقانه ، مخافة أن تهتز أدنى اهتزاز .

وكانت تضع فوق رأسها منديلا كبيرا أصفر عقدت طرفيه

فوق فمها حتى لا يضايقها التراب المتسرب من القش المتناثر والأرض الجافة . وبين وقت وآخر، كانت تذهب فتتمدد فوق التبن كحيوان من حيوانات النقل أعياه التعب . وعندئذ تبدو الدموع فى عينيها ، وتأخذ بطنها شكل تل مشوه .

وألقى بيترى ماجاون نظرة اهتمام على زوجته ؛ فوجدها منتفخة بسبب الحمل انتفاخا كبيراً . وعندما تنحنى ، يبدو كأن أنفها وكل وجهها قد دخلا فى بطنها . وبعد كل حفنة من القمح تقطعها ، كانت تمسح عينيها بطرف منديلها الكبير . وكان يخيل إلى بيترى أنها تبكى .

سألها :

ـ ماذا .. أنت تبكين يا آنا ؟

ولم تجب .

ـ قولى إذن .. أنت تبكين ؟

وضغطت آنا بيديها على ركبتيها ؛ ثم مرت بهما بجهد بعد ذلك على فخذيها وجنبيها . كانت كل حركة من حركاتها تزيد من انتفاخ بطنها . وبما أن المنديل الكبير الذى عقدته فوق فمها كان يمنعها من الكلام ، فقد انتزعته وعقدته فوق أعلى مكان فى جمجمتها .

وأجابت متنهدة :

ـ أبكى ؟ لماذا ؟

ـ ظننتك تبكين .

ـ لا... كل ما فى الأمر أننى أحس بأننى ثقيلة جداً .. لست أدرى لماذا أحس بنفسى اليوم ثقيلة هكذا ؟ ليكاد الإنسان يقول أننى أحمل للمرة الأولى .

واقترب ثور ليساندرو لوتشا ، وقد قيدت سنوافره ، يقفز قفزات صغيرة من أقصى الحقل . وألقى نظرات خبيثة إليهما ، وتحفز لاقتحام القمح .

وانقض ماجاؤن عليه لاعنا ، وضربه بظهر منجله .

ـ أيها الحيوان الملعون .. هل تريد أن ترعى فوق حقلى ؟ ليس لدى مائة فدان .. امض .

وسمع صوت ليساندرو لوتشا ، وهو يقوم بالحصاد أيضا على مسافة غير بعيدة منهما :

ـ أيها الأب ماجاؤن .. لا تضرب ثورى . من الأفضل أن تطرده بخورى .

ومن جهاته ، عم السكون السهل .

كان بيترى ماجاؤن يحصد بحماس ، وقد أمسك بنهم فى يده الكبيرة حفنة ضخمة من السنابل . بينما كانت آنا تنتقل بعناء من مكان إلى آخر . كانت متخلفة دائما عن زوجها . ولذلك فإن بيترى عندما يتجاوزها كثيرا ، لا يلبث ان يعود أدراجه كى يساعدها .

كانا صامتين . وعندما يتعثر منجله أحيانا فى بعض النباتات

الشائكة ، ينفجر بيتري مستنزلا اللعنات . وتبدو آنا كما لو كانت لا تسمع شيئا . وتكتفي بإدارة رأسها نحوه متنهدة تنهدات عميقة كأنها صادرة برغمها . كانت عيناها حزينتين ، وقد اتسعتا اتساعا غير عادي .

وساد صمت مرير فوق سهل باراجان . وكان يخيل لمن يراه أنه ينتفض في الهواء تحت وميض الشمس . كانت الأرض تحترق ، وسيقان القمح متكسرة ، بينما انكمشت أوراق الذرة التي اصفرت قبل الأوان متخذة شكل الاقماع .

ورغم ذلك ، كان الفلاحون يعملون . ولم يكن الإنسان يرى سوى ظهورهم . كانوا يتقدمون منحنين خلال حقول القمح يحصدون . وعندما ينتصبون ، فإنهم يتأملون السماء ، بينما تضرب الزنابير بأجنحتها السنابل المائلة .

ومن ناحية المستنقعات ، كانت ترتسم بقعة بيضاء .. سحابة خفيفة إلى حد أن الإنسان يكاد يقول أنها شبكة من الدخان لا تلبث أن تنقشع .

وتسرب الجفاف مخادعا كأنه مرض .

كان الإنسان يحسه في السماء بزرقتها الكثيفة ، وفي خوار الحيوانات ، وفي كل ساق وكل سنبلة ، وفي الأرض المنهكة وانتشر اصما ، جاثما كالموت ، مبتلعا المياه والحياة .

ومن جديد ، مضت آنا كي تتمدد فوق التبن .

ونظر إليها بيترى ماجاؤن ، وتتبع بعينيه حركات بطنها التى كانت ترتفع وتنخفض بانتظام . وقال لنفسه :

ـ أية سعادة تحياها هذه البائسة آنا ! تضع كما تضع الكلبة دون تبصر طفلا فى إثر آخر ..

وسألها :

ـ متى يحين الوضع ؟

ـ حقا ، لا أذكر . أظن أنه لم يحن الوقت بعد .. ربما فى خلال أسبوع .

وابتسمت ، وهى مضطجعة على ظهرها ، ناظرة إلى السماء .

ـ قومى إن .. فلنسرع .

ونهضت آنا . . كانت تشتغل بصعوبة ، وكانت على الأصح تثير الفوضى بين السيقان ، تاركة وراءها ذيلا طويلا من السنابل . وكان بيترى يجمعها دون تململ ، عند ما يربط حزمة . وأخيراً قال .

ـ من الأفضل أن تذهبى إلى جانب العربة كى تستريحى قليلا . يوجد هناك ظل ، وسوف تشعرين بحرارة أقل . وتبعا لما أراه ، فإن هذا الحمل فى نهايته . وليس ما أقوله لمجرد القول . ولكن إذا وضعت فى وسط الحقـــل ، فسوف تتحدث القرية كلها عن ذلك .

ـ القرية ! .. لست أنا الوحيدة فيها التى تضع وسط

المقول . أنى أعرف جيدا أن الرجال يضعكهم هذا .. ولكننا معشر النساء نضع أطفالنا حيثما تأتينا آلام الوضع .. الإله الرحيم لا الرجال ، هو الذى ينظم كل هذه الأمور .

ومرت بطرف منديلها الأصفر الكبير على وجهها كما تجففه ، واحكمت وضع مريلتها فوق بطنها ، وانصرفت . كانت الأرض تحرق باطنى قدميها . وآنا لها قامة تقارب فى الطول قامة ماجاؤن . وكانت تسير بخطوات واسعة ، ولكن حملها الناتئ كان يخل بتوازن مشيتها . وتبعها ظلها ، مفرطا فى طوله مفرطا فى بشاعته ، فوق التبن بسطحه المستوى ، وبأطرافه الذميمة التى كانت تختفى فى ظلها لدى مرورها .

وبسرعة ذهبت آنا لتتمدد فى حمى عربة النقل حيث يوجد قليل من الظل . وكان نصف جسمها الممتد تحت خصرها ممرضا الشمس . وجاءها ألم حاد توتر له جسمها كله . أتراه بشيراً بالخلاص ؟ لقد سبق أن وضعت هكذا فى إحدى المرات . كان ذلك فى الخريف وقت حصـــاد الذرة ، وتحت مطر خفيف . . .

وأقلقها هذا الألم الذى تكرر . عسى أن لايأتيها المخاض الآن . وهنا ، سال عرق غزير بارد تجمد له عمودها الفقرى . وأصابها ذعر شديد ، فأمسكت بيدها اليسرى عجلة عربة

النقل . وقبضت بيدها اليمنى على التبن قبضة قوية نزعته بها من الأرض .

وظلت بلا حراك ، وعيناها مثبتتان فى السماء ، وأنفاسها متقطعة .

وهناك بعيداً وعاليا ، فى أعماق السماء ، كانت قبرتان تتقابلان ، أشبه ما تكونان بنقطتين صغيرتين جداً .. كانتا تغردان . وعلى الأرض ، وسط الأذرة ، كانت هناك سمانة تغرد هى الأخرى . وفكرت آنا فى أنه يجب عليها أن تتمدد فوق حصيرة الخيزران الموجودة إلى جانبها . ولكنها لم تجسر على التحرك ، وظلت متمددة فوق الأرض العراء .

واقتربت ضفدعة بظهرها الرطب من وجهها ، وهى تقفز قفزات قصيرة . وتوقفت ، ونظرت إلى آنا نظرة ثابتة ، وفمها مفتوح . كانت عيناها منتفختين ، بينما كان يختلج حلقها المشوب بيقع بيضاء .

وتضايقت آنا ، فأرادت أن تطردها . ولكن الآلام كانت تهاجمها فى ذلك الوقت ، دون أن تترك لها فرصة للراحة . وانثنت حول نفسها متأوهة ، بينما ازدادت يدها تشبثا بعجلة عربة النقل . ثم ارتعشت ركبتاها فجأة ، وأحست كما لو كان هناك من ينتزع ساقيها من أعلى فخذيها .

وتبع هذا الاضطراب شعور منهش ، وغمر قلبها سرور

كبير أحناء عينيها المملوءتين بالدموع . وتركت عجلة العربة ، ونفضت التراب الذي ظل ملتصقا براحة يدها اليسرى .

وعندما نهضت على ركبتها . كانت عيناها زائغتين تحيط بهما هالتان زرقاوان كبيرتان ، وانحنت لتأخذ بيديها المرتجفتين النحاسيتين الطفل الذي كان يضربه بساقيه في التين ضربات متواصلة .

وكانت شعيرات من القش وذرات من التراب ملتصقة بلحم الوليد المائل إلى الحمرة . وانتصبت الأم ، وحملت طفلها تحت الشمس ، وهزته مرات متعددة . وانطلقت صرخة .. ورضعت آنا الطفل بشغف إلى صدرها ، وقبلته فوق رأسه .

ونزعت القش والتراب اللذين يلطخانه ، ونزعت مريلتها وطوتها عدة مرات لتجعل منها قماطا ، ووضعت الطفل بسرعة في عربة النقل ، التي بسطت فوقها جديلة من الخيزران تظللها .

ثم ثبتت النصف الأسفل من ردائها ، كأنما لم يحدث شيء ، واتجهت نحو زوجها لتواصل العمل إلى جانبه .

كان بيتري ماجاون غارقا في عرقه ، كما لو كان قد استحم في النهر . وتناثرت خلفه عشرات من الحزم في غير ترتيب . وكان الجو قد أصبح خانقا ، واتخذت الأرض لونا بنفسجيا . ليكاد الإنسان يقول أن حريقا أشعل سهل باراجان .

واقتربت آنا من بيتري ، ولكنه كان غارقا في عمله . ووقفت وقفة مستقيمة ، ممسكة بالمنجل ، في انتظار أن يتكلم . وواصل ماجاون عملية الجز بهم ، ودون توقف . كان يقطع بضربة واحدة سيقان القمح الملتوية فوق حد منجله .

قالت له آنا :

ـ بيتري ... اصغ إلي يابيتري ... لقد وضعت منذ هنيهة .

ودون أن يلتفت ، أدار ماجاون عينيه نحوها .

كانت المرأة تتكلم بصوت خافت . كانت تحس بطعم الرمال في شفتيها .

ـ نعم يابيتري ... لقد وضعت منذ هنيهة .

وسقط المنجل من يدي بيتري ، وانتصب واقفا .

ـ ماذا تريدين بذلك ؟ لقد حدث هذا مرة في الخريف .. يوم أمطرت السماء رذاذا باردا .

وأراد بيتري أن يقول شيئا .. أن يستنزل اللعنات كما يشاء . ولكنه سرعان ماعدل . وأمسك بمنجله مرة ثانية ، وسأل بينما كان يواصل قطع حزم جديدة من القمح :

ـ هل هو ولد ؟

ـ نعم .. ولد .

واستطال عنقه الذى يشبه عنق النعامة .. وزادت ضحكة صامتة من اتساع فمه . وقال :

ـ ولماذا عدت إذن ؟

ـ لقد انتهى الآن كل شىء . . . إننى أحس بنفسى قادرة على الحركة .

وها هى ذى تحصد من جديد ، ولكنها كانت متخلفة عن بيترى بمسافة كبيرة . وكان بيترى يحصد بسرعة ، كأنما الذئاب تلاحقه . والسنابل تدغدغ ذقنه المبللة بالعرق ، بينما تعلقت بها بضع شعيرات من القش .

وهبت ريح خفيفة ساخنة من جهة الشرق . وجرفت معها الشيكوريا والنباتات الشائكة ، على شكل دوامات . ويرى بيترى آنا بنظرة خاطفة ، كلما وضع حزمة من الحزم على الأرض . كانت دون مريلة ، بينما كان الجزء الأسفل من ردائها غير مرتب على الاطلاق . وكانت تجد عناء فى إغلاق يدها على السنابل . وكان منجلها يهتز . لقد أوحت إليه زوجه فى هذه اللحظة بحزن بالغ . لم تكد تضع طفلها الثامن حتى أسرعت بالعودة إليه .. كيما تشتغل .

وفجأة انتصبت آنا واقفة ، وعيناها متوهجتان ، والمنجل فى يدها ، وقالت :

ـ بيترى .. أشعر بأننى متعبة من جديد .. سأذهب .

ـ اذهبي، ولا تعودي مرة ثانية إلى هنا. ابق بجانب الطفل، وراقبيه حتى لا يتسلقه النمل أثناء نومه، وغطيه جيدا.

ومن جديد، ترك بيتري وحيدا يشتغل. وتوجهت آنا بشفتين شاحبتين، وبأقصى سرعة تستطيعها نحو نهاية الحقل حيث توجد عربة النقل وطفلها. ولكنها ما كادت تصل حتى عاودتها نفس الآلام، بل آلام أشد، تمزق أحشاءها. وانتابها الخوف، فاضطجعت إلى جانب العجلة.

واقترب منها طفل يحمل زجاجة بين ذراعيه .. كان يريد أن يشرب ماء دون شك، ولكنه ما كاد يراها على هذه الحالة، حتى ولى مسرعا وهو ينتفض.

وتسلل ثور ليساندرو لوتشا إلى أرض بيتري .. ومضى ينقب بقرنيه عن كومة من القمح. وقالت آنا لنفسها «لو استطاع بيتري أن يدير وجهه لن يراه».

وتقلص جسدها بسبب الآلام، وتعلقت من جديد بعجلة العربة .. أنين، ثم انفراج حاسم لا حد له. وسمعت صرخة قصيرة. وفي الحال أخرجت، وقد نهضت واقفة تبتسم، طفلها الثاني من بين التين. وفي جو يونيو القائظ، دوت صيحات الطفلين في الحقول. وأرهفت آنا سمعها متتبعة تنفس الطفل الثاني الذي لم يكن قد انتظم بعد.

وسمعت فراشتان حولها ، ففزعت آنا وضمت الطفل إلى صدرها ، بينما صدرت منها حركة حاولت بها طردهما .

وسرى بسرعة في الحقل خبر وضع آنا ، زوجة بيتري ماجاوَن ، لطفلين ذكرين . وظهرت قابلات كثيرات متطوعات ، وكأن معجزة أظهرتهن ، ومعنيين يغسلان الوليدين الجديدين بالماء المجلوب من البئر . وانتزعن خيطا من القطن الأحمر من أطراف ثيابهن ، ليربطن به الحبل السري .

وقطع بيتري عمله ، واقترب من زوجته . وانتابه قلق غامض ، وقد ذهل للتجمع الذي أحاط بها . واستند إلى عريش الحرات ، وسبح بنظراته بين الحقول ، وكأنه غريب عما يجري حواليه . وعلى مسافة غير بعيدة منه كان جواداه اللذان ربطا بسير جلدي إلى وتدين مثبتين في الأرض ، يدوران حول نفسيهما لاعقين التبن الذي يتكسر تحت حوافرهما . وكانا ينفخان بصوت عال ، عاقدين حولها سحبا من التراب .

قال أنتوني لونجو ، وقد اتكأ بكوعيه على العربة

ـــ قل إذن يا بيتري . . يستطيع الإنسان أن يعد ضلوع طفليك . . إذا لم ينزل المطر ، فسوف نموت كلنا جوعا

واقترب بيتري ، وقال :

ـــ هذه الحياة لم تعد تحتمل . . لدى سبعة أطفال ، وبإضافة الطفلين الأخيرين يصبحون تسعة . . وإذا أضفنا نحن

الإثنين ، يصبح المجموع أحد عشر فما يجب إطعامها . فلنقل إن الوليدين الجديدين ليسا فى حاجة الآن إلى طعام كثير . ولكن يبقى رغم ذلك التسعة الآخرون . وأنا لا املك إلا هذا الفدان من الأرض . بل لم أدفع حتى الآن ضريبة العشر ، ولا ثمن الرعى .

ـ إذن سارع بدفعهما ، وإلا فسوف يأتون فجأة ليأخذوا منك جميع أموالك . أنت تعرف ما ذا حدث للآخرين ؟ لقد أخذوا منهم كل شىء ، حتى الأغطية .

ـ ما ذا تريد أن أصنع يا صديقى القديم ؟ « سارع » هذه التى تقولها لى ، لا تقدم ولا تؤخر .

ـ بع شيئا .

ـ ما ذا أبيع ؟ هل لدى شىء أبيعه ؟

وفجأة حجبت السماء سحب كثيفة رمادية آتية من جهة المستنقعات عند حدود سهل باراجان . لقد مرت هذه السحب بسحب أخرى أشد سمرة وأقل ارتفاعا تبددت فوق الدانوب .

وكانت الشمس محتجبة وراء السحب احتجابا جزئيا ، وقد فقدت ضياءها .

والحرارة لا زالت خانقة تجثم فوق الحقول جميعا .

ومع ذلك ، كان الإنسان يحس من حين لآخر بتيارات من النسيم العليل .

وأرعد الرعد ، وازداد هبوط السحب إلى أسفل ، ولكن الأرض كانت متوهجة دائما تحت بطون الأقدام .

قال أنتونى :

ـ سأذهب يا بيترى . . ربما أمطرت .

كانت آنا فى ذلك الوقت وحيدة فى العربة ، وقد استضمت طفليها بين ذراعيها ، وجلست فوق فراش من القش أعدته لها الفلاحات حتى يخففن من اهتزازات العربة . كانت فى هذا الوضع أعلى من جوانب العربة . وكانت فى تضمها تشبه العذراء المقدسة .

وازداد قصف الرعد . وتساقطت قطرات الماء الأولى كبيرة ثقيلة . وحل بيترى وثاق الجوادين ، وربطهما بسرعة إلى العربة . ووضع ملابسه وحاجياته فى العربة ، ونظر نظرة أخيرة ليرى إذا لم يكن قد نسى شيئا .

ـ هل أنت مستريحة فى مكانك العالى يا آنا ؟

ـ نعم ، ولكن لا تسر بسرعة كبيرة .

ومشى الجوادان من تلقاء نفسيهما . وابتهج بيترى لذلك وقال لنفسه :

ـ لابد أنهما أحسا بقدم العاصفة . ومن أجل ذلك فقد أسرعا .

ومن جهة القرية ، ازدادت شدة المطر . كان يتدفق مثيراً التراب ، وينبسط فوق السهل بسرعة ، أشبه ما يكون بستار من

الآلى . وصهل الجوادان ، وأرهفا آذانهما . وبسط بيترى الجديلة ، ونشرها فوق آنا وطفليها كأنها قماش خيمة .

لقد بدأ المطر فى أول الأمر رقيقا كأنه نسمة ريح أو سحابة تتساقط منها قطرات صغيرة دقيقة . ولكنه ما لبث أن انهمر غزيراً متدفقا فوق سهل باراجان . واستمى بيترى هو أيضا تحت الجديلة ، ولكن ساقيه ظلتا مكشوفتين . وجعلت آنا من جسمها ملجأ ثانيا لطفليها ، بأن مالت فوقهما . كانت تمسكهما فوق ركبتيها ، وقد ضمتهما بين ذراعيها . وكانت تصيح كلما اهتزت العربة : « برفق يا بيترى .. برفق » ، وترفع طفليها بحذر ، وتنظر إليهما نظرة قلقة .

وكان الجوادان يخبوان خبواً غير منتظم ، بينما تتصاعد من الطريق بسبب المطر رائحة نفاذة من الطمى المبلل .

وسال الماء فى الأخاديد التى تخلفها العجلات ، وتدفق فى الحفر . وانتصبت على جوانب الطريق الأعشاب والنباتات الشائكة وأوراق القرطب وخصل النباتات السامة ، وقد اغتسلت وامتلأت حياة . حتى التبن نفسه ، مهما سحقته الأقدام وأصابه من جفاف ، فقد أبرز أطرافه أشبه ما تكون بفرشاة .

وتسرب الماء من خلال الجديلة مبللا الملف والقش . وكانت آنا مطوية إلى نصفين فوق طفليها . ومن وقت لآخر ، تقرب شفتيها من خياشيمهما لترى ما إذا كانا لا يزالان على

قيد الحياة . وداعبت شفتيها هبات خفيفة من الهواء الدافئ . . إنهما يتنفسان .

وخرج بيترى من تحت الغطاء . كان يفضل أن يجابه المطر . وألقى نظرة على آنا ، فلمع عينيها مبللتين بالدموع . لقد ألصق المطر منديلها الأصفر الكبير فوق رأسها ، وكان وجهها منتفخا مغبراً .

وأحس ماجاون هو أيضا بشيء رطب ساخن يبلل عينيه . ولكنه لم يعرف هو بذاته إذا كان يبكى ، أم هذا هو المطر الذى يتساقط قطرة قطرة فوق وجهه .

وعلى جانبي الطريق ، بدت الحقول المتعشبة المظلمة تجرى تحت المطر الذى يقرقر ويزبد . كم كان جواداه هزيلين تحت الأربطة الجلدية الواسعة التى كانت تصطدم بجوانبهما المبللة ! كانا يخبوان ، ومع ذلك لا زال ماجاون يضرب عظمتى رقبتيهما بقبض سوطه . وتهتز العربة هزة مفاجئة فى أثر كل ضربة يضربها . وأدار رأسه قلقا فى اتجاه آنا ، ليرى إذا لم تكن تشكو من شيء . ولكن آنا كانت قد كفت عن الكلام منذ وقت طويل .

وسقطت الصاعقة بعيداً عن مزقة القبة السماوية نحو الشرق .

وبدت القرية ميتة تحت سهام المطر المنهمر . وكانت العجلات الرطبة تصدر صريراً أجشا . وانحرفت انحرافا خفيفا ، وعبرت بابا ، وتوقفت فى الفناء .

وقفز ماجاثون من الحمال إلى الأرض . وأمام المنزل ، خرجت فرقة من الأطفال ووقفت صفا واحداً . إن الصغار يعرفون جيداً أن أمهم موجودة تحت الغطاء ، ولكنهم لم يدركوا لماذا تأخرت في النزول هكذا . واندفع بيترى نحو نهاية الفناء وصاح :

.. يا أبي فاسيلي ، ويا ابنة العم ماريا .. تعالى بسرعة .. ساعداني على إنزال آنا من عربة النقل .. لقد وضعت في المنقل .

وهرع الجميع ان صفاة الأقدام ، وقد غطوا رؤوسهم بالخيش . واقتربت ابنتا آنا الكبيرتان . كانتا تبكيان ، وقد جهلتا ما حدث . واندفع بيترى من جديد داخل العربة وأخرج طفليه من تحت الجديلة ، واحداً بعد الآخر . وأعطاهما إلى ابنة العم ماريا التي ضمتهما إلى صدرها ، وغطتهما بطرف شالها ، وجرت لتدخلهما بسرعة في المنزل . وكانت آنا متوترة من فرط ما انحنت طول الوقت على طفليها ، وكأنما انكسرت إلى نصفين . ولقد أضجعوها إلى جانب طفليها فوق السرير الموضوع بالقرب من النافذة .

كان الأطفال التسعة يبكون فزعين . لم يجرؤوا على الدخول إلى الغرفة . وظل بعضهم أمام المنزل ، بينما دخل الآخرون المطبخ .

كانوا جميعا قذرين فى أطمار بالية . وتركهم بيترى يصيحون دون أن يعيرهم أدنى اهتمام . ومن وقت لآخر ، كانت تبدى له صورة ملحة : أكل كل يوم لتسعة أفواه ، جياع دائما ، ومع ذلك يجب إطعامهم ، قريبا سيصبحون أحد عشر .

نعم ، لقد أمطرت . ولكن قطعة أرضه الصغيرة لن يزداد خصبها أبدا بسبب هذا المطر .. أما أولئك الذين يملكون بضع مئات من الهكتارات يفلحها لهم خدمهم ، فلهم شأن آخر .

وخرج تحت المطر ، وهو يستنزل اللعنات ، كى يفصل جواديه عن العربة ، ويتركهما يروحان ويجيئان فى الفناء .

وصرخت بطة شاردة بضع صرخات يائسة . وأحس بيترى بآلام شديدة فى ساقه المجروحة .

وكان جاراه ، فاسيلى وماريا ، فى تلك اللحظة على عتبة الباب ، وقد غطيا رأسيهما بكيس ، فقالا له :

ـ لا تبتئس يا ماجاون .. إنهما ذكران .. هذا فأل حسن .

أراد بيترى أن يرد عليهما ويشكرهما ، ولكنهما لم يتركا له وقتا . لقد أصبحا فى الشارع .

وهدأ المطر ، ولم تعد تسقط سوى قطرات نادرة من الماء . واهتزت أوراق الطلح ، فأزعجت العصافير الهاجعة فى أعشاشها

ومن جديد ، اصطف صغار ماجاؤن السبعة أمام المنزل .
وأخرجت آنا رأسها من النافذة .. كانت صفراء كالشمع .

وكان بيتري وحيداً في الفناء ، وقد ماد الكبيرتان العاريتان منحنيتان في الطين الذي راكمه مطر يونيو . لم تكن لديه أية رغبة في الدخول . وصهل أحد جواديه . كان جائعاً ، ولا شك . وأحس بيتري بأن هذا الصهيل يتخذ شكلاً ودوائر وأنه يظل معلقاً بأشجار الطلح الموجودة في الطريق على مرأى من أطفاله .

وخرج ماجاؤن من الفناء متجهاً إلى منزل أنتوني لوتجو ، يدفعه الفضول إلى معرفة المنازل التي داهمها رجال الضرائب خلال النهار ، وهل تراهم وقعوا الحجز أيضاً على بعض الأسمال البالية .

لم يقل شيئاً لآنا ولا لأولاده . وفي أثناء اجتيازه للفناء ، سمع صهيلاً جديداً يأتي من فوق السور الخشبي .. وسار بيتري في وسط الطريق مذهولاً يتابعه صهيل جواديه .. الصهيل الذي كان « يراه » معلقاً بأشجار الطلح . وقال لنفسه ، وقد حاول أن يدرك كنه هذا المنظر الذي تشبث به :

ـ أى شيطان ـ « رأى » يوما صبيحات تتعلق بفروع الأشجار !؟

وأقبل المساء مترفقا مختلسا . وصفقت السماء . ورسمت الشمس الغاربة زهورا قرمزية على زجاج منازل الفلاحين .

(ظهرت فى مجموعة « قصص لم تنشر » ١٩٣٥)

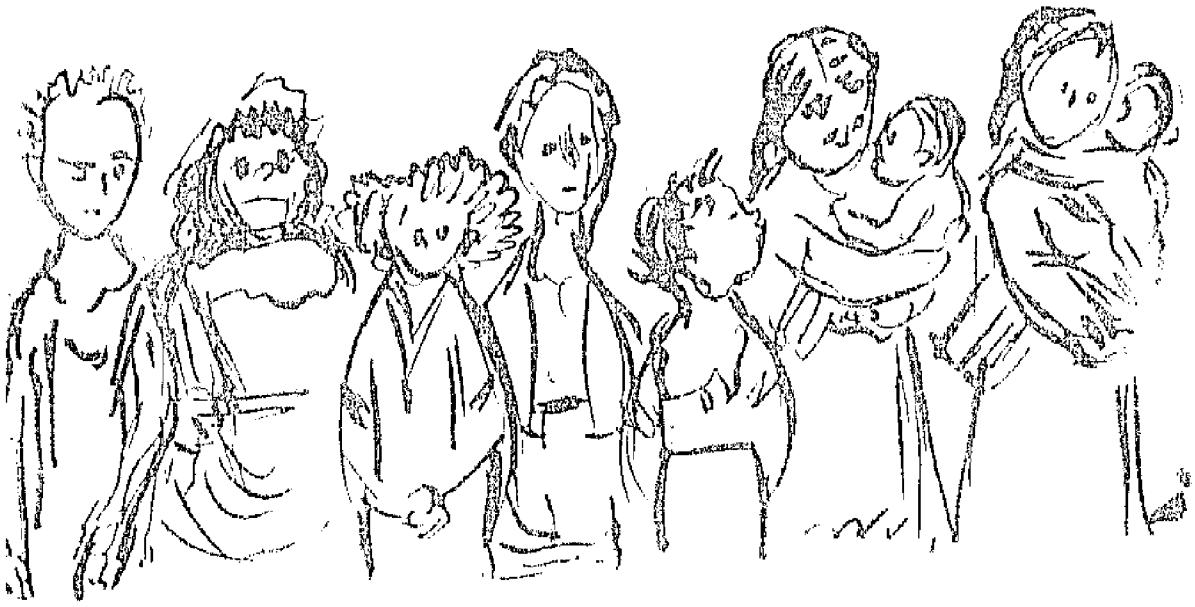

جيرلاس مبتلع السيوف

في محاذاة الطرق الترابية كانت عربة نقل صغيرة ، بعجلتين مترنحتين ، ومغطاة بقطعة من الجلد ، تتقدم متعثرة من قرية إلى أخرى . وكان يجرها جواد رمادي كبير ، له ضلوع بارزة وعينان دامعتان أبدا ، جاذبا بتراخ الأربطة الجلدية التي رقعت ألف مرة .

لقد كانت عربة ميخائيل جيرلاس مشهود الموالد الذي كانت تبعث رحلاته السرور في نفوس الفلاحين .

وما يكاد يظهر في أزقة إحدى القرى ، حتى يسري خبر وصوله مسرى مسحوق ترك للهواء . ويهرع الأطفال دفعة واحدة ليروا « جيرلاس مبتلع السيوف » ، ويحيطون بعربته مهللين حتى الفندق القائم في وسط القرية .

ومن تحت الغطاء الجلدي للعربة ، كان يبرز ميخائيل جيرلاس .. رجل طويل القامة ، عريض المنكبين ، حتى الظهر قليلا ، له وجه مجعد هرم . وبحركة استحياء يرفع قبعته ويحيي الأطفال بانحناءة . ويرد عليه هؤلاء مجتمعين ، وقد بلغ بهم السرور حدا كبيرا « أهلا وسهلا بمقدمك لدينا يا جيرلاس .. أسرع ، وأرنا سيوفك . نحن نريد أن نراها ... سيوفك ....» ويبتسم الرجل ابتسامة عذبة ، ويندس ببراعة بينهم محاذرا ألا

يتعثر مصطدما بهم ، ويمضى ليخرج من صندوق عربته قليلا من العلف لجوادة ، رابتا على عينيه المنتفختين المتوترتين .

وفى خلال ذلك ، يصل الناس فى جماعات . وتهرع القرية كلها إلى هناك . ويبدأ جيرلاس ألعاب الشعوذة أمام هذا الجمهور الولوع بمثل هذه المناظر .

ويصعد إلى كرسى يتخذ منه مسرحا ، ويبتلع كثيرا من الزجاج ، ويخرج من أنفه أشرطة متعددة الألوان ، وخواتم ، وبيضا ، وقطعا من النقود . أو يضربه بعصاه السحرية فيخرج من قبعته الباهتة حمامتين بيضاوين .

ويصفق له الفلاحون بكل قواهم ، وقد بلغ بهم السرور أقصى حد ، ويصيحون بأعلى أصواتهم « برافو جيرلاس .. هذا مذهل .. برافو .. يحيا جيرلاس » .

وينتهى العرض دائما بنفس النمرة : جيرلاس يبتلع ثلاثة سيوف . كانت هذه هى النمرة الرئيسية فى برنامجه . وكانت تحدث دائما تأثيرا كبيرا .

وما يكاد يخرج من حزامه السيوف التى تلمع نصالها المصقولة فى الشمس ، حتى يضاعف الجمهور من اهتمامه ، ويتابع المنظر مشدوها .. كل منهم بحركاته الخاصة . ويلوح جيرلاس بالسيوف أولا فى الهواء ، وتصطك السيوف فوق رؤوس المشاهدين . ثم يبتلعها . وعندما يكون السيف الأخير مستقرا فى فمه المفتوح

فتحا تجاوز المتوقع ، ينحني جيرلاس قليلا ، مباعدا بين ذراعيه ، أشبه بصليب سائل على وشك السقوط . ويظل هكذا بضع دقائق معلوبا في الهواء .

وعند نهاية العرض يرمي الفلاحون في قبعته السحرية بقطعتين أو ثلاث قطع من النقود الصغيرة ... كل منهم حسب عاطفته ..

قديما ، كانت حياة جيرلاس مختلفة كل الاختلاف . ومنذ زمن ليس ببعيد — أحد عشر عاما على أقصى تقدير — كان في استطاعته أن يتبارى مع أشهر المشعوذين في العالم . وكان أشهر مديري المشروعات المسرحية والسيرك والميوزيك هول في أوربا يعرضون عليه عقودا خيالية . وكانت صورة كبيرة له إلى أقصى حد تطبع في إعلانات ضخمة تغطي جدران المدن الكبرى . ونظرا لنزعته البوهيمية ، لم يفكر هذا الفنان المدلل أبدا في الهرم . ولكن السنين تتابعت تسحقه تحت ثقلها ، وتنتزع منه الشباب والصحة . وفجأة ، وجد جيرلاس نفسه وحيدا عجوزا فقيرا . ولم تعد أشرطته وحماماته تهز أحدا . أما الثلاثة سيوف التي يدخلها في جسمه حتى مقابضها ، فكانت تبعث الاشمئزاز لدى الجمهور الرفيع الذي يشاهده في البلاد الأجنبية . ومن ثم ، عاد إلى موطنه .

واستقبلته المدن الصغيرة والقرى استقبالا حماسيا . وعاش جيرلاس مرة ثانية في أيام مجده السالفة . ولكنه في هذه المرة ،

كان مجدا هينا لا يعود عليه بشيء كثير . كان يقدم حفلاته في الهواء الطلق ، دون إعلانات حائط ، وبجوار جواده المحزون وعربته ذات الغطاء الجلدي . وكل هذا في مقابل قطعة من الخبز .

ومنذ بضعة أيام ، سقط رحاله في قرية . كانت هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها إليها . وذهب فلاحو الناحية جماعات ليشاهدوا العرض. كانوا قد سمعوا الناس يروون عنه الأعاجيب فهرعوا ليشاهدوه . وبعد أن صعد جيرلاس على كرسيه القديم ، وسيطر على الحاضرين ، بدأ بعض حيله . كان في حالة جيدة . كان يشعر بأنه لم يثر أبدا مثل هـــذه الحماسة منذ رحلاته في الريف . وذكره ذلك بلحظات المجد التي كان يحياها في الملاهي الكبيرة بمرسيليا وأوربا .. بعد قليل ، لن يفكر إلا في الحيل التي يقوم بها .

كانت جماهير الفلاحين تصفق دون انقطاع ، وتهتف له بحرارة « برافو جيرلاس ... برافو جيرلاس » .

وبلغت الحماسة أقصى مداها عندما لوح المشعوذ بسيوفه الثلاثة ، فلمعت في ضوء الشمس . واختفى الواحد منها بعد الآخر في فمه .

وتضاعف التصفيق .

وطفت صيحة داوية بصوت أجش تلفتت لها رؤوس المشاهدين ، وانحبست لها أصواتهم :

ـ كل هذا نصب واحتيال .. إن هذا الرجل دجال .. هناك خدعة فى سيوفه . . فليبتلع قليلاً من حربتى ، إذا أراد منا أن نقدره .

وقال آخر :

ـ نعم .. هذا هو المطلوب .. ابتلع إذن حربة الرئيس . . ألا ترون أنه يسرق نقودنا ؟ إنه يعبث برؤوسنا .

وأخذ الفلاحون الذين ثاروا فجأة ، والذين يبلغ عددهم بضعة مئات ، فى الصياح غاضبين . واخترق ضابط البوليس الجماهير متهجرفا ، وتوقف أمام المشعوذ الذى ظل واقفا على كرسيه .

ـ هذا هو المطلوب يا ميخائيل جيرلاس .. إذا أردت أن نصدق حيلك ، فأجدر بك أن تبتلع حربتى إذن بدلا من أسلحتك الحديدية . لقد رأيت محتالين من أمثالك فى موالدنا . إنهم يضعون نقودنا فى جيوبهم مقابل لاشىء . ثم .. احذر .. لأننى أمثل السلطة هنا ، ولن أسمح لك بأن تخدع رجالنا .

ـ هذا حقيقى .. إن جيرلاس هذا يخدعنا ..ألا تخجل إذن؟ .. أيها المشعوذ القذر ..

وأخذت الجماهير الساخطة فى الصياح ، وهى تضيق الخناق حول جيرلاس . وأدار المشعوذ بصره مشدوها من فوق

رؤوسهم . لم يحدث أبداً أن وقف مثل هذا الموقف . لماذا يقفون هنا ؟ من من أولئك الذين يتهمونه يستطيع أن يبتلع هذه السيوف الثلاثة ؟ هل في استطاعة هذا الضابط أن يفعل مثلما فعل ؟ طبعاً لا . وفكر في أن يقترح عليهم ذلك ، وأن يقدم لهم السيوف ، كي يمسكوها بأيديهم . وإذا استطاع أحدهم أن يبتلعها ، فسيعترف هو إذن ببراءته .

وإلى جواره ، مد جواده الرمادي أذنيه .. هو أيضاً يكن يفهم من ذلك شيئاً .

وأخيراً رفع المشعوذ ذراعيه ممسكاً بيده اليمنى السيوف الثلاثة . وخاطب الجماهير :

ـ ها هي ذي سيوفي . ما عليكم إلا أن تأخذوها وتتحققوا .. إنني أبتلعها منذ أربعين سنة .. ولم أشعر يوماً في حياتي إنني رجل شرير .

ومد سيوفه إلى الجماهير . ولكن لم يصنع أحد لما يقوله لم يلمس أحد سيوفه التي كان يلوح بها عيناً من فوق رؤوسهم واستأنف الضابط الكلام ، فقال :

ـ إنني أسخر من سيوفك .. إذا أردت أن نصدقك فابتلع حربتي .

وانفجرت الجماهير صائحة من جديد :

ـ هذا حق .. ابتلع إذن حربة الرئيس .. أنت تفتش وتسرق نقودنا .

وأبصر المشهوذ بحياته تتحطم وبشهرته القديمة تتثلم إلى الأبد . وربط ، شاحب الوجه ، إلى حزامه سيوفه الثلاثة التي استخدمها حتى الآن في إثارة إعجاب الجماهير ، وأمسك بيد مرتعشة حربة الضابط . لم تكن تلمع تحت ضوء الشمس . كانت مطلية بالشحم . ومر بها جيرلاش على كم سترته كي ينظفها .

وابتسم الضابط ابتسامة مرتابة . وانتظرت الجماهير متحرزة ، وبدا المشهوذ لحظة ، وكأنه يترنح فوق كرسيه . وأمسك بالحربة بين الإبهام والسبابة ، وبدأ يولجها في فمه . وبعد أن ابتلعها حتى نصفها ، سحبها بقوة . ومن جديد ، مسحها فوق كم سترته ، واستأنف العملية . وفي هذه المرة دخلت كلها من فمه . لم يعد يرى منها إلا مقبضها ، وشرابتها الصفراء التي كانت تتأرجح فوق ذقن المشهوذ . وباعد جيرلاس بين ذراعيه على هيئة الصليب وارتجف كأنه طائر جريح يريد أن يحلق في الفضاء .

ودوى تصفيق جنوني . وصاح الفلاحون ، وقد ذهبت الحماسة بعقولهم « برافو جيرلاس .. فليحيا جيرلاس » .

وبحركة يائسة ، أمسك جيرلاس بمقبض الحربة ، وسحبها ولكن في نفس الوقت الذي خرج فيه السلاح ، اندفق من حلقه بحر من الدماء .

أراد أن يتكلم .. ولكنه ترنح . ولم يلبث أن هوى إلى جانب حربة الضابط ، وإلى جانب المسرح الذى لا تزيد مساحته عن مساحة كرسيه .

« الكلمة الحرة »

٥ مايو سنة ١٩٣٤

وقائع يوم مزدحم

يوميا ، وحوالى الظهر ، التقى بنفس البقية الباقية من إنسان . . . متكئا على ناصية القصر : رجل أحدب يستند جسمه الهاجز على عكازتين . وفوق لوحة صغيرة مثبتة على يمينه ، كان يمسك بيده الهزيلة كمية من الجرائد . كان يخطو بضع خطوات كأنه طائر بري مذعور ، ويصيح بصوت أجش مناديا بأسماء بعض الجرائد ، ثم يعود إلى ركنه .

كانت عينا هذا الأحدب دامعتين دائما . . . كان مصدورا ، وله شكل منفر .

وأول أمس ، وفى اللحظة التى أراد أن يعبر فيها « شارع النصر » ، كادت سيارة باكار أن تسحقه . وحطمت العجلات عكازتيه ، وبعثرت جرائده فى الشارع . وصاح السيد راكب السيارة قائلا : « يالحيوان ! » . أما السيدة التى كانت مرتدية فستانا أصفر ، والتى كانت جالسة أمام عجلة القيادة ، فقد توقفت وأغمضت عينيها كما لو كانت تطرد منظرا مفزعا .

ووجد الأحدب ، وقد ذعر ذعرا شديدا ، القوة التى مكنته من الزحف على الأسفلت مستعينا بيديه حتى وصل إلى الركن الذى اتخذ منه ملجأ ، وأخذ يبكى . كان يشبه كلبا

طويلاً ، فأعطيته مائة « لى » كى أهدى من روعه . ماذا أستطيع أن أفعل غير هذا ؟

ورأيته اليوم ، فى نفس المكان ، عند ناصية القصر ، بسكازتين جديدتين ، وقد تضخمت كمية جرائده . وتبادلنا البسمات بود ، واشتريت جريدة من رصيده المتجدد . نعم ياسادة ، إننى أدرك جيدا أن الواقعة فى حد ذاتها مطروقة . إننى أكرر كى الخص : أحدب أعرج يبيع جرائد كى يعيش . هذا شىء يحدث كل يوم ، أليس كذلك ؟

وفى الليلة السابقة ، تأخرت فى حى جريفيتزا . ووقفت أنتظر الترام . كانت بالقرب منى امرأة نحيلة طويلة كأنها عصا طويلة . وفجأة رأيتها تسقط على الأرض ، وتتلوى وترتجف بشكل تشنجى ، بينما سال الزبد على فمها . ووصل رجل من رجال البوليس . . . طبيب اجتهادى ، ضغط على اصبعها الصغير ضغطا شديداً . وعند ما وصل الترام ، تبرع السائق بتشخيص المرض راسما علامة الصليب قائلا : « فليحفظنا الله . . . إنها مصابة بداء الصرع » . وبعد قليل ، ثابت المرأة إلى رشدها ، وصعدت إلى الترام . فاتخذت لى مقعدا بالقرب منها ، وهذا ما قالته لى : إنها تسكن فى بيلو ، وتعمل خادما فى مطعم فى جريفيتزا ، وتتقاضى ٨٠ « لى » يوميا . إنها تشتغل من الساعة ٨ صباحا حتى الساعة ١١ مساء . وقد أصيبت بهذا المرض

وهي طفلة . وأنفقت كل ما اقتصدته كي تبرأ منه . ولم تعد تعالج نفسها الآن . إنها من دوبروفنيك ، وترسل إلى أمها هناك خمسمائة « لي » شهريا . كانت تقبض بيدها على منبه . إن صاحب العمل قادر على تزييف الوقت كي يبقيها بعد الساعة المحددة . ولقد كسرت زجاج المنبه في انتفاضة من الانتفاضات التي عانتها أثناء أزمتها

واقعة أخرى مطروقة إذن : خادم في مشرب ، مصابة بالصرع ، تعمل خمسة عشرة ساعة يوميا ، كي تكفل حياتها وحياة أمها . لا يوجد شيء غير عادي في هذا .

وشيء آخر : كانوا يجمعون تبرعات في كانتين الطلبة لشراء إكليل لزميلة لنا انتحرت شنقاً . لقد صعدت في الليلة السابقة إلى مخزن الحبوب . كانت تصعد هذه السلالم الخشبية حية لآخر مرة ، وفي أعلى المخزن ، حيث تتسلط في الصيف حرارة خانقة ، وحيث يمتزج كل شيء في طبقة من التراب الذي تتخلله من السوس الفزع ، وحيث ألقت عندما ودعت طفولتها عرائسها المحشوة بالخرق . . . أدخلت زميلتنا رأسها في أنشوطة . ولقد عثر أخوها — طالب أصابه البله بسبب الامتحانات — وأختها الصغيرة الطفلة على جثتها تتأرجح في الفضاء دون حياة . وذلك لأنها كانت في السنة الدراسية الأخيرة

بكلية العلوم الطبيعية ، وكان يجب عليها أن تقدم بعد بضعة أيام إلى أمها ، التي تقيم في قرية في الجبل ، دبلوما يحمل إمضاءات علماء ووزراء . . . قصاصة عادية من الورق لا تستطيع في عصرنا هذا أن تفيدها بشيء . نعم ، بعد خمسة عشر عاما من العمل الذهني ، تشنق طالبة نفسها قبل أن تموت جوعا .

منذ ليال أربع ، ينام ستة عمال من شركة الترام تحت نافذتي . وفي النهار ، يقومون بإصلاح خطي ١٥ و ١١ . إنهم ينامون في نوع من الأكشاك تشبه إلى حد كبير الوجارات التي تنام فيها الكلاب الأصيلة في منازل الأغنياء .

وأمس فقط ، قرأت الجريدة التي كنت قد اشتريتها من الأحدب الأعرج . لقد أخذتها هكذا . . . لم تخرج المسألة عن مجرد أن اشتري منه أي شيء ، دون أن تكون لدي نية قراءتها . ومع ذلك فقد وجدت فيها أشياء لهـــا أهميتها . . . أية حماقة كنت سأرتكبها لو أنني نسيتها فوق المائدة !

لقد قرأت فيها خبراً عن أمير من أمراء الدولارات ، من البلد الذي له قلب قد من حديد ، يعرض جائزة خيالية لمن يتوصل إلى إرشـــاده عن أبرع طريقة لإنفاق ثروته التي لا تحصى . . .

كان الوقت متأخراً ، ففتحت النافذة وتركت الجريدة تسقط فى الشارع إلى جانب العمال الستة النائمين، فربما يقرأون هم أيضا هذه العجائب . . . فى الفجر قبل أن يبدأوا أعمالهم .

« الساعة الأخيرة »

٢٢ يونيو سنة ١٩٢٩

كانت كرات الثلج الأولى قد تساقطت على الضاحية . لكن بشائر الشتاء هذه لم تشاهد بعد في وسط المدينة الذي كان يموج بفيض من الحياة ، والذي كانت الحجارة تغطي وجه الارض في جميع أجزائه . لقد نزلت هذه الكرات عند المساء خفيفة — كأنها نجوم دقيقة — تقبل طلعي الاحياء المتطرفة قبلات خاطفة . كانت السماء من ناحية الغرب معتمة . وأضيئت النوافذ واحدة بعد الاخرى . وبعد ذلك هبت ريح جافة عاتية معلنة سقوط البرد .

وكان ليب جولدبيرج يتقدم بخطوات متمرجحة ، دون أن يعير برك المساء اهتماما . كانت مشيته السريعة ، التي تبدو كأنها على استحياء ، هي مشية رجل يطارده الخوف . ومن خلال نعل حذائه ، أحس بعضة الشتاء النهمة المعادية . ودخل إلى منزله بعد أن مشى ساعات طويلة . اليوم أيضا ، وفي كل مكان ذهب إليه يعرض خدماته ، تلقى نفس الجواب : « نحن لا نستخدم أحداً . . . بالعكس نحن نوفر مستخدمينا » .

منذ شهور كثيرة ، وهو يسمع هذه النغمة المشئومة تطعن قلبه ، كأنها طعنة خنجر . كانت تستنزف يوما بعد يوم أمله في العثور على عمل .

قديما كان جوزف ينبرج صاحب دكان متواضع . لقد كان له فى هذا الحى بالذات دكان خردوات صغير .

وسارت أعماله لفترة معينة ، ثم اضطر لتصفية المحل .

الإفـــلاس ..

لقد أغلقوا مصراعى دكانه ، وختموا عليهما بالشمع الأحمر . وبعد قليل ، جاءت سيارة نقل قديمة كى تحمل « بضاعته » ، لم تكن هذه البضاعة شيئاً مذكورا : بضع دستات من بكرات الخيط المختلف الألوان ، وبضع دستات من علب الدبابيس والمللى الزجاجية وأربطة الأحذية .. كانت سيارة النقل عند وصولها ممتلئة تقريبا ببضائع مفلسين آخرين .

وتجمع المتسكعون فى الشارع . ولكن هذه العملية كلها لم تستغرق وقتا طويلا .

كان ليب جولدينبرج لا يكاد يتذكر ذلك الحادث . كان قد فقد عقله إلى حد ما فى هذه اللحظة . وتذكر فقط أن ذلك حدث فى الصيف .. فى صميم شهر مايو . كان رجلا الضرائب يرتديان قميصين ، والعرق يتصبب منهما . وتذكر أيضا أنهما كانا يصخبان ويلعنان . كان هناك جنود قد نبتوا الحراب فى بنادقهم يقومون بحراسة سيارة النقل . وعلا ضجيج الجماهير . وأحاط أصحاب الدكاكين والحلاقون وتجار الأحذية فى الحى

بسيارة النقل . وكانوا يسبون رجل الضرائب بمختلف السباب. كان جميع الناس فى حالة هياج شديد .

كان المنظر حزينا كأنه مأتم . بيد أن الإنسان يحس بأن بأن هذه الجماهير قد تولد فيها شعور بالثورة . لكنه شعور لا يزال وجلا تافها .

وسارت السيارة وسط ضجة تكاد تصم الآذان . وقفز رجلا الضرائب والجنود فوق سلم السيارة . كان يبدو عليهم أنهم غير مطمئنين أبدا . واختفوا فى سحابة من الدخان لها رائحة البنزين تتابعهم صيحات ازدراء من الجماهير .

وانتحبت سارا زوجة جوزيف بريج نحيبا متقطعا . وفى وسط الارتباك العام ، تذكر ليب المفلس أولاده. كان له خمسة أولاد. لقد أبصر بابنه الأكبر سيمون يتبع سيارة النقل بنظرة مفكرة. كان عدد من أربطة الأحذية يتدلى فى إهمال من جيب بنطلونه. كان هذا هو كل ما استطاع أن ينقذه . وأمسك بيـــده أخاه آيزيك الذى كان يبدو فى حالة رعب شديد . كانت لآيزيك أذنان كبيرتان متدليتان تشبهان ورقتين من أوراق الكرنب . وكان شعره الأحمر ، وكأنه انتصب بفعل الخوف ، يلمع لمعانا غريبا فى ضوء الشمس .

وظلت سارا تنتحب . وبين النساء اللاتى تجمعن ، يلمس الإنسان أيضا أنين مختنق فى المناديل والمرايل تتخلله اللعنات .

وفجأة ، أحس ليب جولدينبرج بضيق شديد . وتذكر ، وقد تسمرت قدماه في وسط الشارع ، إلى دكانه المنهوب . كانت النوافذ ومصراعا الباب مفتوحة على آخرها ، وأكياس الورق وبقايا الزجاج متناثرة على الأرض . واندفع نحو سارا ، ودفعها دفعا يكاد يكون وحشيا إلى داخل الفناء . وبصوت خشن نادى سيمون ، ثم قال بصوت حاسم إلى أولئك الذين تجمعوا حوله :

ـ ماخطبكم أيها الناس الطيبون . هل مات أحد هنا ؟ لا . . . إذن لماذا تبكون ؟ إنه القانون الذي يريد ذلك . . . ولن يمضي وقت طويل ، حتى تهانوا جميعا نفس الوضع .

وانصرفت الجماهير ، وقد ثابت إلى رشدها . بينما همهم أحدهم قائلا :

أيها اليهودي اللعين . . ياله من جزء !

مضت ستة شهور كاملة على ذلك الحادث ، لم يجد ليب في خلالها عملا . إنه عاطل جديد يضاف إلى جيش العاطلين . ويخرج من منزله كل صباح ، ولا يعود إليه إلا عندما يهبط المساء ، وتوقد مصابيح الشوارع . إنه يبحث عن عمل . كان على استعداد لأن يقوم بأي عمل ، لكنه لم يجد شيئا . كان هناك رجال من أمثاله يقطعون الشوارع جيئة وذهابا . . يقابلهم الإنسان عند كل المنعطفات ، وفي الميادين والحدائق العامة .

إن الإنسان ليعرف العاطلين من مشيتهم ، ومن طريقة تحريك أذرعهم ، أو كما يقول ليب من « وميض نظراتهم » . ولقد تعلمت سارا نفسها منذ مدة معينة أن تقرأ فى عيون الناس .

وفى أول الأمر ، كانت تسأل ليب كلما عاد من المدينة إن كان قد وجد عملا . أما الآن ، فلم تعد تسأله هذا السؤال . وما يكاد يجتاز عتبة المنزل ، حتى تنظر إليه لتفهم .

ويطوى ليب نفسه قسمين كأنه أكورديون ، ثم يرتمى على السرير ، دون أن ينطق بحرف واحد . لقد أصبح هذا نوعا من الطقوس الدينية فى أسرة جولدينبرج . وابتداء من هذه اللحظة تصاب النفوس السبع الموجودة فى المنزل بصمت تام حتى الفجر عندما يشرع الأب الجديد فى البحث ...

كل شىء غارق فى الظلام . وهنا وهناك أنوار تومض . والرياح تهب بعنف ، وليب جولدينبرج يرفع بنطلونه ياقة معطفه العتيق ، لم تكن أمامه سوى بضع خطوات كى يصل إلى المنزل . ولكم أراد أن يطول الطريق ، وأن يستمر . لقد أصبحت عودته إلى المنزل بالنسبة إليه تعذيبا نفسيا كبيراً . وإن سارا لتنتظره ، وقد هرمت وتيبست كأنها قطعة من شمع العسل المتعفن . وإن أطفالها الخمسة لم يعودوا سوى أشباحا . منذ متى جاءوا إلى الحياة؟ إنه يعرف جيدا أن سارا أو سيمون أو هابا أو غيرهم من ينتظرونه بشغف كبير وشوق بالغ ، لا يمكن أن يعتبروا بأى

عمال من الأحوال مسؤولين عن شقائه . إنه هو دون شك أكثرهم إثما . ومع ذلك فلم يجد شيئا يستطيع أن يحاسب نفسه عليه . لقد اشتغل ثمانية وأربعين عاما كمجرم محكوم عليه بالأشغال الشاقة ، ولم يصل إلى تحقيق شيء على الإطلاق . ولقد كبر أطفاله إلى جانبه معزولين بريين فوق أراضي الملجأ الجديدة . ماذا ارتكبوه من إثم ؟ وبالرغم من البرد القاتل ، فقد أحس ليب جولدينبرج بموجة من الحرارة تغمر قلبه .

وسمع وقع خطوات سريعة تتعقبه ، فارتجف . منذ عام فقط رأى بجانبه شخصا يدعى إيسكوفيتش ، وهو رجل على جانب من القوة ، ومندوب متجول لإحدى المؤسسات التجارية يهاجم في عرض الطريق ويداس بالأقدام . إن المهاجرين للسامية في حالة هياج شديد . ومن أجل ذلك ، فإن أقل ضجة تزعجه . وعندما يمر وسط المدينة ، فإنه يتجنب بقدر الإمكان مجموعات الشبان ، وينظر دائما خلفه ليرى إذا كان متبوعا أم لا .

واقتربت منه خطوات الذي يمشي في إثره . وأراد جولدينبرج أن يتخطاه من يسير خلفه ، ولذلك تمهل في مشيته . وواصل المجهول سيره دون اكتراث ، وقد رفع ياقة معطفه ، وانغمر انغمارا عميقا في أفكاره الخاصة . وتأمله ليب تأملا دقيقا . وعرف في هذا « العدو » جاره هارالمبي أوانتزا . ووجه إليه الكلام مسرورا . وتوقف الآخر :

ـ إذن .. هو أنت ياليب ؟

ـ نعم أنا .

ـ إذن .. أنت تبحث دائما ؟

ـ نعم ، أبحث دائما ، ولكنى لا أجد شيئا . لقد سمعت أنك وجدت عملا .

ـ عملا عاديا . . .

ـ عملا عاديا .. ولكن الأعمال التى قد نحصل عليها عادية دائما . إنك على الأقل تجد ما تستطيع أن تشترى به الخبز ، أما أنا ، فليس لدى ما أستطيع أن أفعل به هذا .

ووصل جولدينبرج إلى منزله .

وقبل أن يحيى جاره مودعا ، وجه إليه سؤالا :

ـ قل لى إذن .. أنت لم تخبرنى إلى الآن عن نوع العمل الذى وجدته .

وانفجر هارالمبى أوانتزا صائحا :

ـ وهل هذا يخصك ؟ إن هذا من شأنى وحدى . ولست مكلفا بأن أقدم لك حسابا عن أعمالى .

وذهل ليب لهذه الإجابة غير المنتظرة ، بل كاد يتملكه الذعر ، وقال :

ـ لست أفهم لماذا تغضب ! أنا أعرف أنك كنت عاطلا مثلى . ولقد أخبرتنى سارا أنك وجدت عملا منذ وقت قريب . أنا ، إذا وجدت عملا ، فسوف أقول لك ذلك دون تردد .

— ما كنت لأسألك أبدا عن ذلك ، وإذن فلن تكون في حاجة لأن تقول لي شيئا .. لا شأن لي بهذا .

وتركه هارالمبي فجأة ، وابتعد .

ولم يستطع ليب جولدبيرج أن يفعل شيئا إلا أن يفكر . ومضى يتأمل ظهر رجل طويل القامة يمشي منحنيا ، وكأنه يحمل ثقيلا . وما لبث هذا الرجل أن اختفى بسرعة في ظلام الليل . وطغى حزن كبير على قلبه .

كان يظن أنه وجد صديقا في هارالمبي أوانتزا . إنهما يسكنان نفس الشارع منذ أحد عشر عاما تقريبا . وطوال المدة التي كان يملك فيها دكانا خدمه بطريقة لا يمكن أن يؤاخذ عليها ، بل كثيرا ما أعطاه أشياء بالنسيئة . كان يبدو على أوانتزا أنه صعلوك مسكين محتاج ، وكان ليب رجلا ذكيا .

ميهيدينتز هي مسقط رأس هذا الفلاح . ولقد جذبته المدينة بسرابها . وكان له عمل ليلي في مصنع — عمل يشبه أعمال كتبة الحسابات — وهذا ما جعل سكان الحي ينظرون إليه نظرتهم إلى موظف .

وفي اليوم الذي فصل فيه ، ذهب إلى ليب في دكانه . وكان يبدو عليه أنه محطم .

وقال لليب :

— ليب .. إنني عاطل

وحاول ليب أن يبعث فى نفسه الشجاعة ، مؤكدا له أن الإنسان يستطيع أن يجد عملا مرة ثانية . وبعد ذلك بشهرين حضر هارالمبي الحجز الذى وقعه رجال الضرائب على جميع بضائع ليب .

ثم أخذت متاعا بلا أهمية تقل شيئا فشيئا . لم يعد جولدبيرج دكان . وكانا يخرجان فى بعض الأحيان معا للبحث عن عمل . وينفصلان عند ناصية الشارع ، متمنيا كل منهما للآخر حظا حسنا .

ووقف ليب أمام منزله . كم بدا المنزل له صغيرا حقيرا ! ليس به إلا حجرة واحدة ودهليز . لو أنه كان ملكه على الأقل . ومن خلال الستار الشفاف بدت خيالاتهم على نور المصباح الضئيل كأنها خيالات الظل . وكان خيال سارا بينها متسيدا .

وقال ليب لنفسه :

ـ ترى هل أصبح هارالمبي هو الآخر معاديا للسامية ؟

واستقبلته سارا بعينين ذابلتين وحركات متبرمة . وفى وسط الغرفة ، كان سيمون ينحت قطعة من الخشب ويشكلها . لقد طلبت منه هايا أن يصنع لعروستها مهدا صغيرا بقدر الامكان .

وكان سميل يقلب صفحات كتاب له غلاف ممزق متآكل الأطراف . لقد أنهى سميل دراسته الابتدائية فى العام الماضى ، ورغب كثيرا فى الالتحاق بالليسيه . ولكنه كان من المستحيل

إرساله إليها . والطفلان الآخران ، آيزيك وليفى ، ينكمشان وسط السرير . وأدار الجميع أنظارهم نحو ليب . ولسكنهم التزموا الصمت .

قديما كان رجوع الأب عيداً حقيقيا . كان الأطفال يقفزون إلى عنقه ، ثم ينقبون داخل جيوبه . وكانوا يجدون فيها دائما قرطاسا صغيراً ملوءاً بالعنب الجاف أو الخروب أو البسكويت أو الحلوى . بالسرور الذى كان يعمهم الآن ، لو أن ليب عاد يوما ، وقد وضع تحت إبطه رغيفا من الخبز الأبيض ليس إلا ! وارتسمت فى رأس ليفى ، بعينيه اللامعتين ووجهه الشاحب الذى يكاد يكون شفافا ، صورة الرغيف وهو يجزأ إلى سبعة أجزاء . سوف يأخذ هو وهايا أكبر قطعتين ، بما أنهما أصغر الأولاد . . لقد أكلوا قليلا جداً هذا اليوم .

وعندما دخل ليب ، ألقى التحية دون أن ينظر إلى أحد . وتبادل مع سارا بضع كلمات بصوت منخفض ، ثم تمدد على الفراش . ونام الأطفال فى الحال وأطفئ المصباح فاختلط ظلام الغرفة مع ظلمات الخارج .

ومرت شهور كثيرة أخرى . ولم يحدث أى تغيير فى حياة جولدينبرج . والتقى مساء فى الطريق ، مرتين أو ثلاث مرات ، بهار المبيى أو انتزا . لقد سعى كل منهما الآخر ، ولكن أحداً منهما لم يتوقف . لقد بدا هار المبيى ، وكأنه هرم . لقد ازداد

ظهره انحناء . حتى مشيته نفسها بدت مختلفة . لقد أصبحت له قفزات صغيرة كمالك الحزين . واستطاع ليب أن يتأمل هذه الخطوات متمهلا فى كل مرة يتخطاه أو انتزا فى الشارع . دون أدنى شك ، لا بد أن هنـــاك فى حياة هارالمبي شيئا لم يستطع جولدينبرج أن يحدده . إنه يعتبر أن صداقتهما قد قسمت نهائيا . وما ذلك إلا لأن المصادفة قد جعلت منه يهوديا . وكثيراً ما قال ليب لنفسه « كان من الممكن أن أكون مسيحيا ، وأن يكون هو يهوديا . . وما كنت لأحمل له أدنى كراهية بسبب ذلك . لماذا يكره بعضنا بعضا ؟ » .

وفى أثناء هذه المدة ، مرض سيمون . لقد أصيب بالتهاب رئوى ، وهو الآن طريح الفراش . إنه ينام وحده فى سرير الأطفال . وهو لا يحتمل أحداً بجواره سوى هايا . وعلى الأطفال الآخرين أن يشاركوا أبويهما سريرهما .

ويجرى ليب من الصباح إلى المساء كمكلب ضال ، ولكنه لم يتوصل إلى العثور على عمل يمكن أن يوفر لهم حياة عادية . واستطاع أن يتوصل إلى نقل خطاب أو سلة من الزهور ، أو مسح البار كيه بالورنيش فى مكاتب مؤسسة ما . وهكذا نجح كل أسبوع فى اكتساب مبلغ يكفى بالضبط لعدم موته جوعا هو وأسرته .

واقترب الربيع . وصفا الجو فى الأحياء المتطرفة . وقريبا

ينتشر فى المدينة ، فتبعث ملامسته البهجة فى النفوس والأشياء ، وتضفى عليها جمالا .

ووصل جولدينبرج أمام محل أقمشة وأحس بأنه فى حالة أحسن ، فخلع معطفه وألقاه على ذراعه . لن يحتاج إليه فى الوقت الحالى . وأخذ يتأمل فى واجهة المحل الزجاجية قطع الأقمشة المختلفة . لم يبد عليها أنها من نوع فاخر جداً . ولكن لو كان معه نقود لاشترى قطعة تكفى لعمل بنطلون لسيمون . إن سيمون لا زال مريضا . ومن المحتمل ألا يستطاع إنقاذه . إن ثمن الأدوية باهظ جداً ، إلى درجة أنه لم يستطع شراء الأدوية المكتوبة فى التذكرتين الطبيتين الأخيرتين . ولقد اختفاهما ليب فى كتاب حتى لا تراهما سارا . إن سيمون فى حاجة إلى بنطلون ، بل إلى حذاء أيضا . لا بد أن يكون البنطلون والحذاء جديدين على الأقل .. وإلا فإن الناس سوف تسخر منهم يوم الدفن .

وتبللت عينا ليب جولدينبرج شيئا فشيئا بالدموع التى سالت ببطء على خديه ، وتبددت فى شعر ذقنه . كان هناك ضباب كثيف اضطرب له بصره . ولم يستطع أن يميز ألوان الأقمشة . وكأنما كل شىء قد أصبح له لون الرماد .. وأن كل شىء قد أصبح بعيداً .. بعيداً جداً عنه .

وأشار له شخص مناديا . ولكن دون أن يناديه باسمه .

كان هناك شخص يشير له بيده . إنه رجل بدين أنيق ، له ياقة منشاة وصلعته لامعة . وجفف ليب دموعه بسرعة ، وجرى . إنه صاحب محل الأقمشة ، ولقد أشار له بالدخول .

ـ هل لديك عمل ما ؟

أجاب ليب مضطربا :

ـ لا .. لا عمل لى على الإطلاق .

ـ إذن ، ما ذا تصنع فى الحياة ؟

ـ إننى عاطل

ـ ما ذا كنت تصنع فى الماضى ؟

ـ كنت تاجراً

كان الرجل البدين يكلمه بلهجة مليئة بالبرود والتهديد .

ـ أى نوع من التجارة ؟

ـ تاجر صغير .. مثل الكثيرين . أنت أيضا .. أنت تاجر

لقد أثارت جولدينبرج اللهجة المتعالية الوقحة التى يتكلم بها محدثه . ولكنه فكر فيما قد يستطيع الحصول عليه منه . ولذلك استأنف الحديث بتواضع وبصوت أكثر انخفاضا :

ـ لماذا هذه الأسئلة الكثيرة ؟ إننى عاطل منذ عام . لدى خمسة أولاد ، وأبحث عن عمل . أستطيع أن أقوم بأى شىء . إننى لا أستنكف القيام بأى عمل .

قال رجل عجوز واقف خلف المنضدة الطويلة التي تُعرض عليها البضائع :

ـــ أعتقد أنه يصلح لهذا العمل .

وأجاب الرجل البدين باقتناع :

ـــ وأنا أيضا .. تعال من هنا .

وتبعه جولدينبرج . وأدخلوه فى غرفة أخرى يفصلها ستار عن المحل . ودخل صبي يحمل بذلة سوداء ، وقدم له البنطلون .

ـــ البسه

ولم يفهم ليب شيئا . ولكنه أخذ البنطلون من يدى الصبي ، وتهيأ لخلع بنطلونه ، ولكن الرجل الآخر منعه قائلا :

ـــ لا .. لا .. البسه فوق بنطلونك .. إنه واسع بدرجة كافية .

وأذعن جولدينبرج لما طلب به . وكان يود أن يسأل لماذا طلب منه أن يفعل هكذا . لكن ربما أراد الرجل البدين ، الذى يملك هذه الكمية الكبيرة من الأقمشة والملابس ، أن يمنحه بنطلونا بدافع من طيبة نفسه .

وقال لنفسه ، لاشك أنه لاحظ سخنى الحزينة أمام فيترينته وملابسى الرثة . لابد أن ذلك أثر فى نفسه . وربما غضب لو أنى وجهت له أسئلة » .

وقدم له الصبي السترة بعد ذلك . وكان يحمل فى يده اليسرى

قبعة عالية ، لم يكن جولدينبرج قد لاحظها بعد. ولم تكن السترة سترة عادية : لقد كانت سترة سهرة حقا وصدقا .. فراح يتدلى طرفاه حتى كعبي قدميه تقريبا . ثم وضعوا القبعة العالية بحركة وقورة فوق رأسه .

وطلب منه الرجل البدين قائلا :

ـ استدر قليلا .

واستدار جولدينبرج .. ودار حول نفسه عدة مرات .

ـ هذا منسجم عليك غاية الانسجام .

ـ الزهرة ! أين الزهرة ؟ أيها الأبله .. آتني بالزهرة .

وأخذ الصبي في البحث عن الزهرة .

ـ أين ذهبت إذن ؟ من الذي تجرأ وأخذها ؟

ـ كانت هنا ، حتما .. هاهي ذي .

وانتشل الصبي زهرة ضخمة من زهور الكريزانتيم الصناعية كانت قد سقطت على الأرض . وثبتها الرجل البدين في عروة السترة .

ونادى الرجل البدين :

ـ جان .. جان ..

ثم أزاح الستار ، وبدا ليقول :

ـ ماذا تقول في ذلك ؟ إن هذا ينسجم عليه .. هيه ؟

ـ لقد قلت لك ذلك من أول الأمر . لكني أظن أن

الرداء وحده لا يكفى .. يجب أن نضيف إليه الصفارة أيضا .

ـــ لنكن وقورين يا جان .. قد يشيننا هذا ..

ـــ يا عزيزى الدعاية لا تشين أحدا أبدا . ماذا تريده بقولك إن هناك ما يشين فى التجارة ؟ إليك أمثلة كثيرة مما يشين .. هناك عدد كبير من المحلات الكبرى ، حتى تلك التى تتمتع بشهرة عالمية ، ينظم مواكب من الحمير أو البهلوانات أو الشمابين تجتاز الشوارع .. وأنت تأنف لأن رجلا يرتدى فراكا أنيقا سيروح ويغدو مصفرا أمام محلنا ؟ دعك من هذا إذن ..

وأخرج مسيو جان من جيب صديريه شيئا معدنيا صغيرا . لقد كانت صفارة . وقدمها لجولدينبرج الذى أخذها بارتباك ، وهو لا يدرى ماذا يجب أن يصنعه بها .

وقال له مسيو جان بلهجة ودية :

ـــ ضعها فى فمك من فضلك .. وصفر .

وبدا جولدينبرج ، كما لو كان قد أصيب بذهول تام . وأخيرا رفع الصفارة إلى شفتيه ، ولكنه لم يستطع أن يصدر منها صوتا .

ـــ ضعها فوق لسانك ، وانفخ فيها بكل قواك .

وفعل ما قيل له ، ولكن دون جدوى .

ـــ إنها صعبة قليلا .. هاتها إذن .

وبحركة عصبية رفع مسيو جان الصفارة بدوره إلى شفتيه .

وانتفخ خداه ، وتوترت ملامحه ، واحمر وجهه من فرط المجهود ولكن دون جدوى .

ـ يا للعنة ! لقد خدعنا .. ذلك المحتال .

قال الآخر :

ـ أرنى قليلا :

ولكن الرجل البدين الأصلع فشل هو الآخر فى إصدار صوت منها .

وبالقرب منهما ، كان الصبى الذى أحضر السترة الرسمية يتتبع محاولاتهما بعينين لامعتين .

قال :

ـ اعطها لى .

وما كاد يرفعها إلى فمه ، حتى خرج منها صفير حاد طويل .

ـ حسنا .. ولكنك صغير جدا كى تقوم بهذا العمل . يجب ان تكبر أيضا .

وقدمت الصفارة من جديد إلى جولدنبرج الذى رفض أن يقوم بأية محاولة جديدة ، بل شرع فى خلع سترته .

وصاح الرجلان باندهاش :

ـ ماذا تفعل إذن ؟

ـ لا .. إلا هذا .. لا يمكننى أبدا أن أقوم بمثل هذا العمل ..

ـ كيف لا يمكنك ؟

ـ ظننت أنكما تريدان شيئا آخر .. لكن هذا .. لا .. لا .

ـ طبعا ! بدلا من أن تكسب بشرفك قليلا من النقود ، تفضل أن تتسول . ثم ماذا .. أربعون دولارا يوميا .. ألا يكفى هذا المبلغ لتدبير أمرك ؟ نحن نعرف جيدا هذا النوع الجديد من الساطين .

قال ليب بحزم :

ـ لا .. لا أستطيع .

وأحس بأنه فى حالة سيئة جدا ، وأنه على وشك السقوط أمام هذين الرجلين ، وهذا الصبى الذى ظل وجهه هادئا .

ـ إننى تاجر قديم .. إننى معروف إلى حد ما . ولكن إذا أردتم ، فلدى .. سيمون . إنه أطول منى ؛ ثم إنه ممتلىء حيوية وشديد اليقظة . أنتم فى حاجة إلى شاب للقيام بهذا العمل .

كان جولدينبرج يكذب . لقد بدا له وجه سيمون الشاحب الذابل كنبات محروم من الشمس . وتوقفت هنيهة ، وقد خلع نصف السترة ، ثم خلص ذراعه من الكم الأيسر ، ونظر حواليه زائغ العينين فاقد الوعى . كان الرجلان ينتظران ، بينما نظر الصبى إليه أيضا .. متأثرا هذه المرة .

قال مسيو جان :

ـ هيا .. كم من الوقت سيستمر هذا الموقف أيضا ؟ اتخذ قرارا .. خذ .

وقدم إليه ٤٠ « لى » وقال :

ـ إننى أدفع لك أجر يوم كامل ، مع أنه لم تتبق سوى بضع ساعات على المساء .

وأخذ ليب النقود ، ولبس من جديد سترة السهرة . لم يكسب منذ زمن بعيد ٤ « لى » فى يوم واحد .

ـ لا حاجة إلى استعمال الصفارة اليوم ، ستتعلم كيف تستعملها بمرور الزمن ، يكفى الآن ان تروح وتغدو أمام المحل ، وتقوم بجميع أنواع الحركات .

كان جولدينبرج لا يزال مترددا ، ولذلك مد رقبته وسأل :

ـ أية حركات ؟

ـ دون شك يجب عليك أن تقوم بشىء ما . نحن لا ندفع لك أجرا للاشىء ، وإلا كان فى إمكانى أن ألبس « مانكان » ، وانتهى الأمر .

ـ إذن .. ماذا يجب على أن أفعل ؟

واتخذ صاحب المحل هيئة وقورة وقال :

ـ تقف دائما وسط الرصيف ، فى مواجهة المحل ، وتحيى المارة على أن لا تكون التحية عادية ، بل تنحنى حتى الأرض ، ثم تشير إلى فيتريناتنا بحركة واسعة من ذراعك ، وأنت قابض بيدك على

القبعة العالية ، وإلى جانب هذا ، يجب عليك أن تبالغ فى جميع حركاتك ، ومن المستحسن جدا أن تضحك المارة . إن همنا هو إثارة اهتمامهم ، ودفعهم إلى مشاهدة معروضاتنا .. فاهم ؟ وربما سيبدأ طبعا أو جيبت كل حركة من حركاتك بتصفيرة من الصفارة . وفيما يتعلق بهذا ، فسوف نرى ذلك بعد مرور وقت ما ، عندما نتعلم كيف نستعملها .. يبدو لى أننا لا نطلب منك شيئا غير عادى . إنه عمل سهل جداً . نوع من الرياضة البدنية ... بكل بساطة .

وابتسم مسيو جان ابتسامة لطيفة .

لم يعد ليب يسمع شيئا . كانت سترة السهرة الواسعة جداً تتهاوى حوله . وكان البنطلون يغطى حذاءه ، ويكنس الأرض . أما جسمه الهزيل فقد تلاشى تحت قماش البذلة الأنيقة الأسود . وضغطت القبعة العالية الضخمة ضغطا شديداً على أذنيه الشبيهتين بجناحى عصفور نتف ريشه .

وانتصب مرة ثانية بمجهود خارق ، ناظرا نظرة ثابته إلى هذا « المدرس » ذى الأنف الأحدب الذى كان يعلمه بوقار وتدقيق المبادىء الأولية لمهنته الجديدة .

وخرج ليب جولديبرج إلى الشارع . ووقف فى وسط الرصيف . ومن هذا الاتجاه فى الشارع وذلك الاتجاه ، كان السائرون على أقدامهم يمضون فى طريقهم كالعادة . وتسلط عليه

شعور بالخزي ، وأحس برغبة في الهرب ، ولكن الخوف من أن يصبح سخرية للناس أوقفه . ماذا سيقولون عندما يرونه جاريا في الشارع ، وهو يرتدي بذلة سهرة ، ويضع فوق رأسه قبعة عالية ؟ ربما يقبض عليه ، أو يضرب ضربا مبرحا ، أو في أحسن الحالات يقابل بصيحات استنكار من الجماهير .. ثم ، إلى أين يذهب بالضبط ؟ إلى المنزل ؟ وظل واقفا هناك ، وعليه سيماء البلاهة ، ببذلة السهرة التي يرتديها .

ولم يمض وقت طويل حتى بدت ملامح صاحب المحل من بين الأقمشة المعروضة . كان يضرب بإصبعه على زجاج الواجهة ضربات عنيفة . وقفز ليب مذعوراً ، وبدون وعي تقريبا ، نزع قبعته العالية ، وانحنى انحناءة كبيرة عميقة . ثم مد ذراعه بحركة يائسة نحو الفيترينة . وبعد ذلك أخذ يكرر تكريراً آليا ولا نهائيا هذه الحركات المبالغ فيها ، وهو يفقد شيئا فشيئا وعيه بالمكان الذي يوجد به ، وبالحركات التي يقوم بها .

وخلف زجاج واجهة العرض ، كانا صاحبا المحل يتتبعانه باهتمام بعيونهما ، وهما سعيدان كل السعادة للهازة التي يبديها ليونبرج ، والتي لم تكن متوقعة منه .

وفي ساعة الإغلاق ، استدعى ليب داخل المحل ، وأعاد بذلة السهرة والقبعة العالية إلى نفس الصبي .

قال أحد صاحبي المحل وهو يضحك ضحكة راضية :

ـ أنت ترى أن ذلك هين ؟

ولم يجب جو لديبرج ، وغادر المحل دون أن ينطق بحرف واحد .

ـ من المتوقع ألا يعود هذا التعس غدا .

أجاب مسيو جوان ، وأنفه غارق فى سجل من السجلات :

ـ تظن ! أنت لا تعرف الناس ، ولا الظروف التى نعيش فيها .

وتذكر ليب فجأة أنه نسى معطفه فى المحل ، ولكن لم تواته الشجاعة للعودة إليه . وقال لنفسه « ربما لا أضع فيه قدمى بعد اليوم أبدا » . وأخرج الصفارة من جيبه ووضعها فى فمه وحاول مستخدما آلاف الطرق ، ونافخا بكل قواه ، ولكن دون جدوى ومشى ليب بخطوات سريعة ، ومع ذلك فقد كان يتوقف من حين لآخر ، منشغلا بالأداة الصغيرة .

وعلى ناصية الشارع ، لمح هار المبى أوانتزا ، وقد وضع يديه فى جيبيه . كان يبدو عليه أنه ينتظر أحداً . وحياه جو لديبرج وتوقف .

ـ لا زلت غاضبا ؟

وظل هار المبى جامدا لا يتحرك ، ولم يجب .

ـ لا أعتقد أننى ألحقت بك فى يوم من الأيام أية إساءة ، فهل هو خطأى إذا . .

ـ لست غاضبا ، ولماذا أغضب ؟ لكنى لا أحب أن يتدخل أحد فى شئونى .

ـ ليس هذا هو السبب الحقيقي . أنت تبتغي بالمال المبي . ومع ذلك ، فلست الوحيد .. بالنسبة إلينا ، تتزايد قصيرة الحياة يوما بعد يوم .. ولكني وجدت عملا ، ورغم كل شيء .. لم تكد تمضي على ذلك بضع ساعات .. إني أقوم بنوع من الدعاية .

قال أوانتزا منهمكا :

ـ آه ؟ الدعاية ؟

ـ نعم .. شيء من هذا القبيل .

وذكر جوالدينبرج عندما خطر له أن جاره قد يعلم ما هية عمله الجديد .

ـ لا بد أنك راض دون شك .. لا بد أنها مهنة سهلة .

ـ نعم .. إنها ليست صعبة جداً .

ـ هل هي دعاية مستقلة أم ثابتة ؟

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

وحاول مار المبي أن يوضح ما يريد قوله ، وقد بدت عليه علامات الارتباك :

ـ أنا .. كنت أهتم دائما بالدعاية .. لكن ما هذا الذي يوجد في فلك ، والذي يمنعك من الكلام ؟

ـ لا شيء .. صفارة ما اشتريتها لآيريك . لقد اشتريت أيضا لعبا أخرى للأولاد .. لقد أصبح لي مرتب الآن !

وحاول ليب أن يضحك . وصمت الإثنان . ثم استأنف جولديتبرج حديثه :

ـ لقد تغيرت في الأيام الأخيرة . لقد لاحظت ذلك في طريقة مشيتك . أنت تمشي مشية غريبة . ليكاد الانسان يقول إنك لم تعد تعرف كيف تستخدم ساقيك .

ـ أنت مجنون ؟ من أين جئت بهذا أيضا ؟

ـ هيا .. يونسوار هارالبي .. سوف تغضب مرة أخرى ، وأنا لا أريد ذلك . لقد قلت لك أننا لم نعد نفهم بعضنا البعض .

ونظل أواتزا واقفا في ناصية الشارع ، غير مكترث بما يجري ، وقد أخفى ظهره ، ووضع يديه في جيبيه . وأخذ ليب جولديتبرج عهدا على نفسه بأن لا يكلمه أبدا . وأسف لأنه توقف . كان من الأفضل أن يواصل سيره هادئا . ولكنه لم يستطع إلا أن يهنئ نفسه لأنه كان متحفظا ، فلم يبح له بحقيقة مهنته الجديدة . لا يجب أن يعرف أحد شيئا عنها . ماذا سيقول الناس لو علموا أن ليب جولديتبرج يتزيا كبهلوان ، ويقوم بأعمال غريبة شاذة أمام محل تجاري ؟ سوف يأتي جميع سكان حيه لمشاهدته . واقشعر بدنه لمجرد التفكير في ذلك . لا .. لا يجب أن يعرف أحد شيئا عن ذلك .. لا سارا ، ولا سيمون .. لا أحد على الاطلاق .

كانت لا تزال هناك بضع خطوات يجب عليه أن يقطعها حتى منزله ، عندما أصدرت فتاة الصفارة التي كان محتفظا بها في فمه أصواتا حادة طويلة . وتملكه سرور لا يمكن وصفه . وانطلق يجري ، ودخل منزله وهو يلهث ، ويأتي بحركات لا معنى لها ، ويصدر تصفيرا يكاد يقطع أنفاسه .

قالت سارا مذعورة :

ـ ليب .. ليب .. ليب .. هل جننت ؟

ومع ذلك ، واصل ليب التصفير ، دون أن يعير أحدا اهتماما . وأخيرا ، ألقى بنفسه على السرير . لقد كان باهت الوجه ولقد كانت جبهته مبللة بالعرق .

وساد الغرفة صمت كصمت القبور .

وظل كل واحد منهم في مكانه ، وكأنه تحجر . ولم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئا . ونهض ليب مرة ثانية . وحركت حركاته الصمت الشامل . وأخرج من جيبه برتقالة أعطاها لسيمون . ولمعت عينا الطفل المريض ببريق شفاف ، بينما أمسك الفاكهة بيده النحيلة المرتعشة . أما هايا ، فقد أحضر لها ليب ديكا مصنوعا من السكر الرائق . وأعطى الآخرين شروبا . وبعد ذلك ، وعلى مرأى من الأطفال ، عهد إلى سارا ببقية نقوده ، قائلا لها بصوت قوي إلى حد ما :

ـ لقد أصبح لي عمل . لا توجد هموم الآن . لقد أنقذنا .

وانزلقت دمعة وحيدة من عين سارا الذابلة . وألصق سيمون البرتقالة بوجهه كي ترطبه .

واستجمع قواه ، ومرر بطرف لسانه على شفتيه المجافتين ، وقال :

ـــ بابا يكسب نقودا !

وطلب آيزيك وليفي بالحاح الصفارة ، ليجربا ها ولو مرة واحدة .

وخاطبهما ليب بقسوة قائلا :

ـــ مستحيل .. هذه ليست لعبة لكما .

وبعد أن أكل شيئا ، وضع الصفارة من جديد في فمه . وتمدد على ظهره ، وأطلق بضع أصوات متحفظة .. كان يتدرب على استعمالها .

كان ليفي ينام بالقرب منه . وفي الطرف الآخر من السرير ، كانت توجد سارا وآيزيك . أما سميل فكان ينام وحده على الأرض وسط الغرفة . لقد اتخذوا هذه الأوضاع منذ أن مرض سيمون .

وسرعان ما نام ليب . لقد احتفظ بالصفارة في فمه . ومن وقت لآخر ، يرفع ليفي رأسه مراقبا كل حركة من حركات أبيه . كان الأب في ذلك الوقت يغط غطيطا مزعجا ، كأنه محرك مضطرب . وأحيانا كان يصفق بشفتيه بينما فمه مفتوح

نصف فتحة . كان ليفي ينتظر على أحر من الجمر أن تسقط الصفارة من فمه . ولمع بريق معدني مرتين فوق شفته السفلى . كان الطفل يترصد أباه ، وقد مد إبهامه وسبابته على هيئة كلابة . ولكنه لم يجسر .

وصاح ليفي ، وقد اعتراه قلق مفاجئ

— ماما .

— ؟

— ماما .. لقد نام أبي ، واللعبة في فمه .. أخاف ان يبتلعها .

ولم يجب أحد . كان الجميع نائمين ، ماعدا سيمون المريض . وبعد وقت قصير ، نام ليفي أيضا ، وقد اقترب من الجسد الذي اختفى فيه الشيء الذي تاقت إليه نفسه .

وقبل أن يستسلم ليب جولدينبرج للنوم ، قرر أن يحتفظ بهذا العمل بعد أن وازن الأمور موازنة دقيقة . آه ! لو لم تكن هناك بذلة السهرة والصفارة ! وأخيرا قر قراره على أن يتنكر حتى لا يعرفه أحد .

ورأى نفسه من جديد أمام المحل . والشارع غير الشارع . لقد ازداد اتساعا بدرجة كبيرة . وعلى صوت صفارته ، انبعثت من الارض أمواج وأمواج من الناس ، وكأنها تنبثق بفعل معجزة . وما لبث الشارع أن ضاق بمن فيه . لقد كان

هناك أناس فوق أسطح المنازل نفسها . وصاحبا الحمل واقفان بقربه . وإلى جانبهما الصبي يحرس عمودا ماردا من الفراكات .

لم يكن هناك أحد يلبس بيلت شفة . لم يكن يسمع غير وقع الخطوات وصوت الصفارة الذي أصبح حادا مثل الصوت اليائس الذي تصدره صفارة المصنع . ووصلت مجموعات أخرى من الناس . كان جولدينبرج يعرف الكثيرين منهم . إنهم عاطلون جميعا . جميع العاطلين في المدينة : وجوه يائسة محطمة ، وأجنحة تآكلت كعوجا . وارتفع صوت من بين الجماهير :

— لماذا استدعيتنا يا ليب جولدينبرج ؟ هل وجدت عملا لنا ؟

ولم يجب ، بل واصل صفيره . واستأنف نفس الصوت الكلام :

— هل وجدت عملا لنا يا ليب جولدينبرج ؟

وتوقف هنيهة عن الصفير ، وأسبال بصره في الجموع وأخيرا قال

— طبعا .. وإلا فما معنى أن أجمعكم هنا ؟

وقفز إلى الأرض أولئك الذين كانوا قد تسلقوا الأسطح وعمت الجماهير انتفاضة الفرح .

— برافو ليب .. برافو ليب ، أنت منقذنا .

وأحس جولدينبرج بأنه مزود بقوة جديدة .

وخرج من محل الأقمشة رجال آخرون يرتدون فاخر الثياب . وكان عددهم كبيرا جدا إلى حد أنهم ملأوا الرصيف كله فى لحظات . وصاح صوت آخر متسائلا :

ـــ لكن هؤلاء .. ماذا جاءوا يصنعون هنا ؟

قال جولدينبرج متعجبا :

ـــ كيف لا تفهمون هذا ؟ إنهم أصحاب الأعمال . وهذه الأعمدة من الملابس .. إنها فراكاتكم . سوف يصبح كل منكم ليب جولدينبرج ، وسوف تصفرون كما أصفر أمام معروضات محلاتهم .

وتساءل أحدهم من بين الجموع :

ـــ أو لا تخجل ؟ لقد فقدت كل كرامة إذن ؟

وهرب أصحاب الأعمال حاملين الفراكات . وظل جولدينبرج وحيدا مع الصبى . وعلى سطح أحد المنازل ظهر إيسكوفيتش ، الذى كان قد رآه ليب وهو يداس بأقدام المعادين للسامية . واستعاد ليب هدوءه ، وقال لنفسه : « سوف يدافع إيسكوفيتش عنى .. سوف يتوصل دون شك إلى تهدئتهم » . ولكن ها هو ذا إيسكوفيتش ينتصب فجأة مرة ثانية ، ويرميه بحجر يصيبه فى منتصف وجهه . وأحس ليب بالدم الدافئ يجرى فى فمه .

.. وقفز ليب جولدينبرج إلى أسفل السرير . وبصق مذعوراً ، ولكن بدلاً من الدم ، سقطت الصفارة على الأرض . وظل هكذا بضع لحظات . لم يكن أحد قد شاهده . كان سيمون نائماً ، والبرتقالة لا زالت ملتصقة بخده . والتقط صفارته ، وصعد إلى السرير برفق وبحركات متئدة حتى لا يوقظ ليفي ، ونام مرة ثانية .

وفي ليلة من ليالي الربيع ، مات سيمون . ولم يفاجئ هذا الموت أحداً في الحي . وحملوه في عربة الموتى الفقراء ، متبوعاً بأسرة جولدينبرج وهار المبي أوانتزا وزوجته . لم يكن هناك من أجنبي سوى الخاخام والحصان وسائق عربة الموتى . وقد أدهش ليب ، حضور أوانتزا . ولم يتبادلا كلمة واحدة .

وعندما كانا على وشك الافتراق ، قال ليب :

ـ أشكرك لحضورك . وآسف لأنك فقدت أجر يوم من عملك . إنني أعرف ما هو ..

أجابه هار المبي :

ـ نحن جميعاً رجال ..

وضغط كل منهما على يد الآخر . ولم يريا بعضهما البعض بعد ذلك . كان جولدينبرج يحب أن يقابله ، وأن يتناقش معه

بصراحة وبقلب مفتوح ، وأن يسأله إذا كان حقا سعاديا للساميين . ولكن لم تتح له فرصة لذلك .

كان جولدنبرج يذهب إلى عمله بانتظام . ولقد اعتاد عليه تقريبا . كان لا زال يعاني شيئا من الحسرة ، ولكنه نجح في التغلب عليها . وظل أفراد أسرته لا يعلمون شيئا عما يفعله بالمدينة . كانوا يظنونه باقيا في محل ما . وفي خلال ذلك زاد مرتبه خمسة « لى » في اليوم . لقد جذب وجوده أمام المحل عددا كبيرا من الزبائن . وفي شهرين فقط ، منذ شرع في التصفير وفي أداء التحيات والاحترامات ، تجددت البضاعة عدة مرات ولذلك ، كان مسيو جان يصيح في كل لحظة :

ـ إن الدعاية البارعة تستطيع أن تبيع بسرعة أية بضاعة

وعلى هذا قر قرار صاحبي المحل على أن يدعما دعايتهما وذات مساء قالا للبب بينما كان يخلع فراكه :

ـ ابتداء من الغد ، سيعمل معك زميل آخر . نحن نريد أن نطلق نوعا آخر من الدعاية .

ولم يعر جولدنبرج هذا الكلام أى اهتمام . ما الفائدة التي يمكن أن تعود عليه من ذلك ؟ وفي الغد ، ذهب إلى عمله كالمعتاد ، ولكن لم تمض بضع لحظات حتى ظهر رجل راكبا عكازتين

طويلتين ، وعرتديا بذلة من قماش أحمر . كان يتقدم ، وقد عاد جسمه إلى ارتفاع اللافتات . كان يمسك بيديه ثعبانا من الخشب . وتوقف أمام محل الأقمشة . وعرضت فى إثره مجموعة من البلهاء المتسكعين . كان الرجل ذو العكازتين يحرك ثعبانه من شرق وغرب البارة ، دون أن يأبه لأحد . وفى نفس الوقت ، كان جولدينبرج يقوم بحركاته الغريبة الشاذة ، ويصحبها بأصوات يطلقها من صفارته .

وفجأة توقف مذهولا ، وأخذ ينظر إلى الرجل ذى العكازتين . وكف هذا أيضا عن تحريك ثعبانه .

ـ كيف ؟ هو أنت يا هارالمبي ؟

ـ اصمت يا أليب .. اغلق فمك .

وعاد الثعبان إلى التحرك فى اتجاه لافتة محل الأقمشة ودوت من جديد أصوات صفارة جولدينبرج

وفى المساء ، عادا معا . لقد خبأ هارالمبي عكازتيه فى قم مجرور .

كانا يسيران جنبا إلى جنب هادئين ، ومبتهجين بالتقائهما مرة أخرى .

وقال جولدينبرج بعد فترة صمت طويلة :

ـ أنا أفهم الآن كل شيء ، وأعرف لماذا كنت تبغضني . ظننت أنك تكرهني لأني يهودي . وعندما رأيتك في جنازة سيمون ، لم أستطع إلا أن أظن

ولم يجب هارالمبي إلا بعد فترة

ـ أعرف ما ذا كنت تفكر فيه ياليب . لقد فكرت في ذلك مثلك . لكني فضلت أن أتركك تظن ما تشاء على أن تكتشف أمري . الآن .. أنت تعرف كل شيء ، وأعتقد أنك لست في حاجة لأي توضيح . . كيف يمكنني أن أكرهك لأنك يهودي ؟ لدي أشياء أخرى أقوم بها ، بدلا من التفكير في مثل هذه الحماقات .. أولا تعاني مثل ما أعاني ؟ أولسنا غارقين في حمأة البؤس نفسها ؟ اسمع ياليب .. هذه الكراهية من مخترعات الأغنياء أيضا .

كان جولدينبرج لا ينظر إلى هارالمبي ، وإنما كان يسمع فقط صوته العذب المعل .. صوت فلاح . ويسمع أيضا وقع قدميه المضطرب .. قدميه اللتين أفسدتهما المكازتان أخيراً .

كان الليل حاراً .

وقد تفتحت براعم الزنبق ، وهواء الحي المتطرف له رائحة الربيع .

وفي الحقيقة ، كان الشتاء القارس قد انتهى . وأقبل الربيع يضفي شبابا على جميع الأشياء .

« المصر الجديد »

١٩٣٦